تحريك القلب

عبده جبير

- Author: Abdou Gubeir
- Title: Movement of the Heart
- Fifth Edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

- المؤلف: عبده جبير
- العنوان: تحريك القلب
- الطبعة: الخامسة 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:

2017 / 15947

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 114 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

عبده جبير

تحريك القلب

رواية

آفاق – لامتان

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جبير، عبده.

عبده جبير: تحريك القلب

رواية

القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2018

176 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 15947 / 2017

الترقيم الدولي 1 – 114 – 765 – 977 – 978

1 – قصص قصيرة

2 – جبير، عبده

تحريك القلب

الجزء الأول

نقوش بارزة على الباب

كلمة لا بد منها

أجد نفسي –الآن– مضطرًّا لكتابة هذه الكلمة / المقدمة، بعد أن تغير كل شيء بالنسبة لهذه الرواية .

فبعد سنوات من كتابتها (بالأحرى كتابة الجزء الأول منها) وجدت نفسي كمن مسه السحر مأخوذًا بكتابة جزأين كاملين آخرين .

أي أن هذه الرواية أصبحت الآن ثلاثة أجزاء.

وأعترف الآن أنني حين كتبت الجزء الأول، لم يكن يخطر ببالي قط أنني سأعود للكتابة في هذه التجربة (وإن كنت أعمل دائما وفي روحي رغبة بأنني صاحب مشروع مستمر ومفتوح) لأجد نفسي أمدها بهذين الجزأين، بل إنني كنت قد نسيت هذا العمل (في جزئه الأول) بعد كتابته عدة سنوات، وكنت أقبل الكلام عنه أحيانا بشيء من الاضطرار، لأنني كنت قد عانيت ردود فعله المتراوحة بين العشق / والعداء الذي تمثل ذات مرة باعتداء

جسدي علي صدري (!) من قبضة يد غاضبة (من أحد الزملاء)، وهو ما قد أضطر لتسجيله علي حدة، كملحق يعقب الجزء الرابع .

وها هو ذا لساني يزل ويعترف، دون قصد، بأن هناك جزءًا رابعًا (خرائط الرواية) هو في الحقيقة تحليل للأشخاص والأصوات، أما الملحق المذكور فسيشكل جزأها الخامس (الثعلب المقلوب) الذي سيكون هو سيرة هذه الرواية .

لكنني مضطر للقول بأنني مدين لهذا العمل. علي المستوي الشخصي. بالكثير، الذي قد يصل إلي حد أنني سأكون مشغولًا بقية عمري بما أمدني به من خبرات .

نعم، فأثناء كتابة الجزء الأول، وبين كل فصل وآخر،كنت «أحس» فكرة كاملة لعمل جديد، تولد أثناء الكتابة، والغريب– حتى بالنسبة إليّ أنا نفسي– أن كلا من هذه الأفكار تولد مختلفة تمامًا عن بعضها البعض؛ وفي البداية ارتكبت عدة حماقات بأن كنت أتجاهل الفكرة تلو الأخرى، أو بالأحرى، أؤجل تسجيلها، وبعد وقت أجد نفسي وقد نسيتها تمامًا، الأمر الذي توقفت عنه بعد فترة، ورحت كلما جاءت فكرة جديدة، أقطع عملي في الرواية، وأجلس لأسجلها كما تأتي، وحتى ينفد ما يأتي به "الإلهام"، فأنحيها جانبا لأعود للعمل من جديد .

وقد أضحي لديَّ الآن مجموعة من الأعمال التي لا تحتاج إلا للجلوس والعمل، الأمر الذي أظن، لو قُدرت لي الحياة، أنها يمكن

أن تشغلني لعشرين عامًا كاملة .

وهذا بالتأكيد من فضل هذه الرواية .

علي أية حال، ما أريد أن أقوله بالنسبة لمن قرأوا الجزء الأول، أو الذين لم يقرأوه بعد، أن "تحريك القلب" كرواية، أصبحت الآن ثلاثة أجزاء، الأمر الذي اضطرني لوضع عنوان فرعي مع كل جزء حتى يمكن تمييزه عن الآخر .

لكنني لا بد أن أذكر أيضا بأنني لم أغير كلمة واحدة في الجزء الأول الذي سبق ونشر بداية من عام 1982 في أربع طبعات متتالية، سوى تعديل بسيط لما كان يسمى " مفتاح الرواية " إذ وضعته في النهاية، وبشكل أكثر بساطة كمجرد فهرس يتلاءم مع وضعها الآن .

هل هذه حماقة أخرى ؟ربما .

وهذه هي "تحريك القلب" بين يديك، في صورتها الجديدة، إذن، وعليَّ الآن، أن أتوقف عن الكلام .

ع . ج

(باب/أ)

(على جانبي البيت بنايتان متباعدتان، وحوله سور تهدمت دعائمه وتآكلت جدرانه، تحف به القاذورات من كل جانب، والباب الحديدي مالت ضلفتاه وارتكنتا: واحدة إلى الداخل، وأخرى للخارج، فلا أحد يعيره أي انتباه، وتلك الشجيرات المتسلقة لم يبق منها إلا أغصانها الجافة، تتشبث بالأركان؛ زادت قدمه، حتى غدا أشبه بكهف عليه العنكبوت، والأتربة، والعلب الفارغة، والأوراق القديمة التي تذروها الريح، وتلقي بها في الردهة الواسعة: حيث ساعة الحائط المتوقفة منذ زمن.

الريح الخفيفة الباهتة – في الصباح – أمالت الستائر المسدلة، ولعبت بالمقعد النحيل، وأسقطته على أرضية الردهة، لم تنفتح الحجرات المتجاورة لبعض الوقت، كانت القطة ما تزال تسعى في المطبخ، والحمام، ودورة المياه، وتسلقت الكنبة القابعة تحت ساعة الحائط: تلفتت إلى النتيجة الورقية، حث كانت فتاة تحمل على كفها علبة لدهان "يشفي جميع الأمراض".

تسربت أشعة الضوء قبل أن يكتمل، واختلط عبير الجو بصياح الديكة، وصهيل خيل عربات الكارو التي أخذت تنهب الطريق الخارجي، وكان أذان الفجر قد مضى عليه وقت تخللته جلبة الخارجين قبل أن يحل الضوء؛ وذبالة المصباح كانت تتلاشى تحت الإناء الذي تصاعدت منه رائحة الفول، وبدأت الحشرات تزحف تحت عقب الباب، وتهبط للدرجات الحجرية المتهدمة قبل أن يكتمل الضوء وتنفتح الحجرات، ويخرج الجمع ليبللوا وجوههم بالماء، ثم يجلسون بملابس النوم، في الردهة الواسعة).

(فصل / 1)

الأم: ما الذي يا ترى سوف يحدث اليوم! ضاعت الأسماء من ذاكرتي، من لي بنتيجة حائط أعرف بها الأيام! لم أعد أستطيع فعل شيء بعد أن مزقوا النتيجة القديمة في إحدى معاركهم (لقد نسي هو الآخر أن يتحدث مع أخيه في هذا الأمر) ها هي ذي الجدران حائلة، وقد توسخت الأغطية، وملأ التراب مفارشنا المهلهلة.

وضاح: السماء ملبدة بالغيوم، والهواء البارد يحمل رائحة المطر، لو نزل السيل، وتحطمت جدران المنازل، وخرج الناس مهرولين إلى ماء النهر!. أسمع صوت الحشرات العاري، وأوراق الشجر الجافة المعلقة على النوافذ المتربة، أشم رائحة تهلل لها

الأكف، وأسمع أصوات المحركات في الجبال، نعم، سأتحرك وسأرتدي سترتي وأحمل متاعي وأطلع، محاولًا أن أتناسى – ككل مرة خرجت فيها من البيت– أنني ربما لن أعود. أو أنني أعود دائمًا، لكن، الخيام الآن تتطاير مع الريح، (وأنا مع الدقات المفاجئة) التي تقذف الرمال على مائدة الطعام الطويلة.

سمراء: أليس وضعي مثاليًّا بالفعل! أرملة صغيرة فتية أنجبت طفلة وولدًا. تزوجت مرة من أجل الطفل– ومرة من أجل البنت. (ذلك لأن الحظ العاثر لا يترك لي أزواجًا ولا أطفالًا، عاملة من الطراز المحبوب، في بوتيك يمتلئ غناءً راقصًا في شارع "قصر النيل" في قلب المدينة العامرة، حيث أتقلب مع الأثواب على أيدي الفتيات.

ياه، الماء بارد بالفعل، الصراصير تملأ الحمام، قلبي يلتوي ويتحرك.

الأب: أنقذوها، أخرجوها ومددوا أطرافها عل الفراش، أحضروا ماءً باردًا، ودلكوا جسدها بالمسك والزعتر وفكوا عنها الأزرار الضيقة.

صيام: ها هي ذي تفيق، افتحوا لها النوافذ قليلًا، لكن ما الذي جعلها تحاول أن يتحرك قلبها! ألم أقل لها ونحن نسير على الشاطئ كعاشقين – إن هذا قد انقضى وقته، إنه ليس أوانه. لكن دعها تفعل، إنني أقوم بنفس الأمر: محاولتان متناقضتان في

نفس الوقت.

الأم: دعكم من الأوهام الصغيرة، فلم يحدث شيء.

وضاح: إن شيئًا لا يحدث قط في أي زمان ولا مكان، كل ما كان حدث مرات، وإن يكن لأشخاص آخرين، لا يهم، فلنغلق حجراتنا –مرة أخرى– على أنفسنا ونرى وجوهنا في المرآة، فلربما اكتشفنا الخطأ، ما تزال الأوراق الجافة تحركها الريح في الخارج، العربات الذاهبة تذهب والآتية تدخل إلينا، القتال ما يزال على أشده أمامي، فالطريق الذي رأته العرافة لي مليء بالأحاجي والأقاويل.

الأب: هل كان حلمًا مزعجًا؟

الأم: ماذا تقول يا أحمد؟ سالي لا تزال نائمة، أيقظيها يا سمراء. إنها يجب أن تذهب، يا لهول هذه الجثة، ذلك التبلد الذي في عينيها، تلك اللامبالاة، أي قدر مزعج يتربص بنا في الطريق!

صيام: عليَّ أن أخرج من هنا حالًا، أرتدي سروالي وأخرج إلى أي مكان، أي ضجيج تحدثه هذه الأفواه الخشبية، لم تزل في مكانها تصارع أفكاري، ما يزال المتجر مغلقًا وقذرًا، وددت لو أخذت إجازة من رائحة الصابون الأسود، الطرقات التي تمتد أمامي (في غيبوبة الصباح)، تنتثر حبات من العرق على جبهة العالم الواسعة، أي حصان جامح رأيت في المساء، ما تزال الأسماك الفضية تسبح تحت سطح النيل، "أمنحوتب" يجلس في مكانه بلا

حراك.. مسرحية الرعامسة منقوشة على لوح من البردي المعتق.. يوم آخر من المحاضرات في الآثار الدارسة.. أساتذتي ما يزالون يلقنوني ما لقنوه للذين هم من قبلي من نفس الكراسات، أي وقار يفوح من حولهم، ويسبقهم إلى المدرجات ليفتح لهم الأبواب بكتفيه، تلك هي النهاية.

الأم: يوم آخر من القرقعة على الآنية النحاسية، الأسواق المكتظة بنسوة عرفتهن، ونسوة أراهن، وباعة الطماطم الشرسون ينظرون إلى يدي، لماذا لا تكف الأطراف عن الحركة، كم من الكيلومترات يقطعها وابور الجاز في رحلة كل يوم، الهواء الرطب يتمايل بالغسيل على الحبال تحت ظل الشجرة.

سالي: يا له من يوم آخر عليَّ أن أستيقظ فيه مبكرة، رائحة الفول و«الحادث» المعلق في وسط فراغ الردهة، ما لهم يقيمون مأساة كل يوم.. يوزعون الأدوار ويتبادلونها على جثث الذين...

سمراء: أي أفكار شريرة تتكون داخلي؟

الأب: الجوالات خاوية، البراميل خاوية، لك المجد أيها الفراغ.

الأم: إنه يمسك بحافظته كمن يمسك الجمر، الثياب المكومة على الفراش المتداعي تنكسر على ضجيج الآنية الراكضة إلى الخارج، أي ألم يخرج من شعلة النار المنطفئة.

وضاح: للمرة الأخيرة أعود، رائحة الرمال على شواطئ

الصحراء تحف باللون الأزرق فتقتل النغم الصاعد من الكهوف المهجورة، الخيام المتناثرة تضج بالحركة، الحرب قائمة، تحرك عقارب الزمن في كل اتجاه، تأخذني الريح على ظهر الطلقات المزمجرة في سكون الظلام، يا لها من أضواء.

علي: لعلهم لا يذكرون شيئًا، حتى العربة التي حملتني بعيدًا (وكان لونها أزرق كالبحر) ما هي الأخبار في الردهة، أي قادم حط الرحال في الحجرات المغلقة، ما تزال رائحة اللون الأزرق تمتد أمامي، حتى إنني كلما نظرت في الرسالة، أو في عيني المقاول (وربما لن أرحل على الإطلاق) أجد القطط المتصارعة على عتبة البيت تفسح لي الطريق، القادم جاء.

الأم: لم يعد سواي في الردهة، الأبواب المغلقة قد انفتحت. الشبابيك أشرعت، وخرجوا: خرجت سالي إلى مكتب المدير تفض الخطابات، تدق على الآلة الكاتبة، إنها في أسبوعها والدماء توجعها، خرج وضاح –يحمل كل ما درس من التاريخ– إلى الجبال المترعة بالجفاف، خرج صيام ليفتح الدكان لأبيه، (إنه يشرب الشيشة على المقهى) خرجت سمراء إلى البوتيك، لم يبق إلا، هل أنت هناك؟ (إنه وقت الخروج) أي رحلة متعبة كانت رحلة القطار في المرة الأخيرة!

(باب / ب / 1)

(حطت الأشعة الباهتة على السطح، تدلت من الجانب الأيسر ومالت برقبتها على المقدمة الخشبية، انفتحت الأبواب وفاضت الروائح المتناقضة لرغبات عديدة، تباعدت الظلال في المسافات الممتدة العازلة ما بين البيت والبيتين المتجاورين، في انحناء ناعم له رائحة الصابون، من حوله بدا العالم فسيحًا من جهة، ضيقًا من الجهة الأخرى، تناثرت حبات من الظلام في الفضاء، وحدقت العيون المتعبة إلى الطيور التي تحوم في الأركان بيأس، عندئذ تفجرت ينابيع الرمال الحارة وهبت على البيت، تناثرت الأخشاب وقطع الزجاج في الردهة الخاوية، تراقصت نتيجة الحائط ودقت الساعة الخشبية ثلاث مرات، تك تك تك، ثم توقفت إلى الأبد، لكن الصوت ظل يتردد بعد أن هدأ الجو حتى إن كل الذين لم يكونوا داخل البيت سمعوه، أنصتوا إليه وبعدها جاء النسيان: على بساط مزركش بالآلام الملونة والتصق بالجدار، وحلت ألسنة الاخضرار اللزج على حواف المقاعد والتطمت بالأبواب، كانت القطط تلعق بقايا الحشرات على الدرجات الحجرية، بينما انغلق الباب الحديدي وتحطم.. صوت رخيم قوي هدد المكان برغبة شريرة اندفعت للداخل، وقفزت للخارج، وحطت في المساحات المتناثرة وأخذت بعنان

السماء، وأمسكت بخصلات شعر الشمس الصارخة، حتى عاد الهدوء يفرض سكونه وهو ممسك بيده حربة، مرتديًا على رأسه تاجًا من ريش الطيور الجارحة، وقد بدا ثديا الزوجة المحاربة، معلقين في الحبال بين أشجار الزهر التي نبتت على شاطئ الوادي بينما تحوم الغربان فيما بين الأزرق والبني الخفيف، ولون الطمي الهادئ، من هناك كان الطائر الضعيف الذي حط على نافذة البيت الكبيرة يأتي كل ضحى، عندما يغادر الجميع البيت).

(فصل / 1 / أ)

وضاح: أمسك بيدي بندقيتي وأمشي في الرمال غير عابئ بالرياح، أضع على كاهلي حملًا مملوءًا بالذكريات المتساقطة من حقيبة التاريخ، سالي تدق الآلة الكاتبة وبين عينيها أجندة مليئة بأرقام التليفونات (كان الحدث مروعًا قبل أن يحدث) أي كارثة تنتظرنا وتنتظرها بفارغ الصبر، أخذت بيدي حفنة من الرمال ونثرتها من فوق الجبل – على القمة – فلم يحدث شيء، تغير لون يدي[1] وأنا أمسك بحفنة الرمال في كفي، نفضتها فعادت. عاد كل شيء إلى حاله، لكن حبة عالقة باصبعي السبابة أثارت فيَّ مشاعري القديمة – عندما جئت لأول مرة – وشعرت بهول الجبال

(1) للحظات.

والرمال، وأحببت أن أحط رحالي إلى الأبد، هنا، في هذا المعسكر الطازج، فهل سأعود لأحاضر الطلبة، وأمْلي عليهم حكم التاريخ، وأفترض في نفسي الوقار، وأمد يدي إلى قلمي بتؤدة (بينما أختلس النظرات إلى عيني تلميذة براقتين) وأدع الحشرات تأكل الذباب، وأنا أحمل الجرح على ساعدي، متباهيًا بأنه كان لي جرح في هذا العالم، سأعود –مرة أخرى– لأنقب في الكتب الصفراء، لأحصل على–B H D– على مشهد من النظارة المصفقين، لكن الدوار لا يزال عالقًا في الخيوط المشدودة الى الفراغ، فيما بين هنا وهناك، "علي" في ليبيا يحمل فوق رأسه طاسة لامعة، عندما سافر كان على وشك الحب، "سالي" تتباهى بفتوتها وهي ذاهبة إلى المدرسة الليلية كي تحظى بلغة تجيدها، أما "نينة" فهي تنشر الغسيل بعد أن أزالت عنه الوسخ، "صيام" ضجر للغاية[1] حينما يفتح شراعتي المتجر، حينما يمشي على الكورنيش "يقزقز" اللب، حينما يعود راجعًا إلى البيت، بعد رحلة تنقيب عن الآثار الدارسة، ما الذي يتحرك هناك في الظلام، هل أطلق النار وأتخلص من حركته؟

ربما لم تكن سوى شعرة من رمش عيني[2] هناك، على جبال سيناء، ما يزال العدو متربصًا بنا (لماذا لم نعد نجلس جميعًا في سهرية المساء ونتحدث في ردهة البيت) فيما بين الزرقة اللاذعة

---

(1) كعادته.

(2) اختفت ما إن فتحت عيني.

والصخور الجرداء يتمدد الموت على الرمال الطرية، حركة العربات الحربية القادمة على شريط الطريق الممتد في الصحراء – المحفوف بالرمال البنية – الشريط المتعرج الرقيق – تمد لي يدًا من المياه البيضاء– فهل انتهى الأمر وتوقف عند هذا الحد اللامع، هل يجدر بي أن أتخلص من الخيالات كي أعود "عاقلًا بلا أوهام"[1]، يا لها من ثياب رعناء تهفهف حولها وهي تخطر على طريق التهلكة الناعم الأخضر، لم مددت يدي إليها عندما تعثرت في الأسلاك الشائكة؟ عليَّ أن أعود وأسترخي على الفراش المعلق بالحبال، وسط الصخور الملتهبة، الوقت يمضي ببطء، الهواء ينفخ في الوادي الممتلئ ضوءًا ينفث الحمم.

(فصل / 2 / ب)

سالي: أمشي في الطرقات مختالة أبتلع ريقي الجاف. أنحشر بين الأجساد المتزاحمة في المترو وأرفع رأسي إلى أعلى وأنا أتفادى العرق (أقفز فوقه)، أهي واقعية ممزوجة بالأحلام تلك التي أضفتها إلى ملابسي بتلك اللمسة؟ سأركض على السلم، وأتعلق بالأسانسير، وأندفع إلى المقعد متشبثة بالحضور «في الموعد المحدد» على مقعد سكرتيرة المدير (قال.. أنا أعرف– أنك لا

---

(1) كما تحب أن تنصحني سمراء.

تتشبثين بي، بل بذلك المقعد –وضحك– لو تغيرت وجاء آخر، هل يغير هذا من الأمر شيئًا يا سالي؟) مسكين لقد بدا مكتئبًا[1] وهو يرى، ذات مرة، الأمواج ترتفع من حوله وترتطم بشواطئه المشروخة المتآكلة، أيها النيل إنهم يصبون عليه اللعنات، (أولئك الأعداء المتخفون) من كل اتجاه، لكنني وحدي أتشبث بوجوده، أرى كما يرى النائم في حلم مزعج –في غيابه– ولو لقضاء إجازة في الريفييرا – فألًا غير سار، سأشتري اليوم لباسًا جديدًا بالمكافأة الجديدة، عليَّ أن أستمتع وأنا أبدو بالمظهر اللائق، صحيح أنني أشعر بريقي جافًّا، لكن، لأستمتع، أشتري الحاجيات وأستمتع، وأضع البارفان تحت إبطي وأستمتع، فلون الأوراق البيضاء[2] يخلب اللب، ياه، ما أجمل هذه الكلمات التي تأمر الآخرين بأن يلبوا الأوامر بهدوء ونظام؟ (في هذه الفوضى المتناهية) سيتغير كل شيء (يا رب لا تجعلهم يقومون بالمظاهرات) إنني أتوق إلى ذلك، وأمي أيضًا، وأظن أبي يتوق إلى النظام، وسمراء، وكلهم. لم أستطع بالفعل (وهذا ما كان يحب مني أن أفعل، هذا ما ينقصني حقًّا، وسأقوم بفعله في الأيام القادمة) أن أعرف ما يدور داخلهم، لكن، لا بد أنهم يتوقون إلى ذلك، أنا أعرفه، ياه، هذه الرسائل عندما تكون غير واضحة، يبدو العمل أسهل بكثير، أجد أصابعي

(1) أعني أكثر كآبة.

(2) وكذلك الزرقاء والروز.

تتحرك بسهولة، وتركض الكلمات – تحت أذرع الآلة الكاتبة– ليبرونفان، لأنني عندما أخطئ، فلن يغير هذا من الأمر شيئًا، ها أنذا أتفانى، أجلس قبل الموعد المحدد، وقد جاء عم «محمد» الفراش بالشاي الممزوج بالنعناع، في كوب نظيف، على طبق نظيف، كل شيء من حولي.. المكتب، والآلة الكاتبة، والأوراق، المساطر، والأقلام، والسويتش، والتليفون الخاص، والتليفون العام، وزجاج النوافذ، والأرضية، والستائر والأبواب، والأبواب والشبابيك، باب حجرة المدير – يلمع ويبتهج بنظافته، كطفل خارج من حمام دافئ ومريح، طفل عاقل يعرف مصلحته في النظافة، وها هي ذي حقيبتي في المكان الذي قال لي[1] أن أضعها فيه بأناقة ورقة تليق بسكرتيرة ناعمة، وسأعتني بدروس الفرنسية وسأتقن الإنجليزية، لكن يجب أن أنتهي أولا من الفرنسية، ومن إجادة الأمور (نحن مقدمون على علاقة وطيدة بالعالم الغربي ويجب أن نكون عند حسن ظنهم، وفي حالة استعداد لذلك، وربما سافرنا إلى هناك يا سالي) حقيقة، ووددت لو حدث هذا[2] يقال أنهم هناك ذوو عيون زرق وخضر، وشعر كستنائي وأحمر أحيانًا. ثم... أن هناك الآلاف من المودات التي تظهر كل يوم، آلافًا من الأشياء الصغيرة الجميلة المغرية التي تجعلك – بأغلفتها الأنيقة الملونة – تشترينها على

---

(1) أعني المدير.

(2) وسأستسلم له تمامًا.

الفور (ودون تفكير) – كما قال، وها هو قد جاء وابتسم، وطبعا، أذهب وراءه وأقف على جانب، بينما هو يجلس على مقعده خلف المكتب (حتى نرى ما سنفعله اليوم) وأعود حاملة دفتر التعاليم.

(فصل / 2 / ج)

علي: تعلمت من مقالة فلسفية – قرأتها في إحدى الصحف في الباخرة التي أقلتني من القاهرة إلى بني غازي – أن الاغتراب ليس هو أن تكون غريبًا عن بيتك[1] لكنه شيء آخر، إنني لست مغتربًا إذن، ولكنني في الغربة، أعني أنني بعيد عن البيت، وهذا كل ما في الأمر، فليس في هذا أي شيء، وأن عدم التلاؤم البسيط الذي يشبه نقطة حبر زرقاء على ثوب أزرق، معناه أنني أحتاج إلى بعض المعارف، إذا تعودت أن تكسب أصدقاء وتؤثر في الناس – يمكن أن تتعوده، أجلس في وقت فراغي وأقلب في ألبوم صوري التذكارية، ها نحن نقف جميعًا بملابس العيد، عل درجات البيت مبتسمين، أمي تضع يدها على كتف وضاح، وأبي في سترته الشركسكين الرمادية يضع منديلًا أبيض في جيبها ممسكًا بعصاه، وسالي تحمل القطة على ذراعيها، وسمراء تضحك مفتوحة

(1) ولكنك حينما تنظر إلى حجر مبلل من أسفل وتشعر بكيانه في يدك وأنت مغمض العينين.

الفم، وأنا ووضاح وصيام نمسك بأيدي بعضنا البعض، فنحن في المقدمة، وها أنذا أكاد أحقق حلم العائلة، سأعود بالعربة[1] وعشرة آلاف جنيه، وسأحصل على شقة في عمارة (لها مدخل عريض مبطن بالرخام) هادئة وجديدة في الهرم، المهم أن ألاحظ العمال بجدية وهم يطلعون على السقالات الخشبية، وينادون على بعضهم البعض.. لكن هذه السقالات تطوق البناء من كل جانب، وتعكس ظلالاً من الضوء المتقاطع على الأرض، حيث جلس أحد العمال يأكل، وقد وضع الطعام على قفص من الجريد، بينما الآخر يغني حكاية أبي زيد الهلالي سلامة ويستند إلى السقالات، إنه البحر الأزرق من بعيد، وتلك الصحراء الممتدة عبر البصر، تسقط الشمس في وسطها، تحرق آثار الخيول والجمال، وأنا أسمع صليل السيوف، أحط الرحال عند النبع، أتبلغ بالتمر ولبن الماعز، أردد الحداء وأسمع الصدى، (صهيل الخيول في غبشة القمر) والناي المنفرد، وهفهفة الخيام، تلك كانت رحلة عرفت فيها نفسي، لكنني عدت إلى النظر إلى السقالات، ففقدت الضوء الذي..، كانت لحظة كذلك الصوت الذي هب وحط على فرع شجرة النخيل (كانت شجيرات الحنظل متناثرة في الساحة) أثناء كان نجمي في الأفق، قبل أن يهبط إلى مجراه، مقام الصوت يقف عنده الصمت، أي مسار يسلك ذلك النجم؟ إنها أمي تلك التي تمشي وهي تخطر مع سقوط

(1) التي تقف أمام البيت ويراها الجيران.

الطست على أرضية الحمام.. تعبر عن ضجرها فتمسك بذيل الكنبة. ترفع الستائر وتنظر من النافذة إلى.. وتعود لتتمشى في الردهة بلا هدف، وتنظر من النافذة إلى.. سمراء تسر بكلمتين في أذن سالي، وتضجان بالضحك، وضاح يقلب في جريدة الصباح حتى النهاية، ويقلبها مرة أخرى.. أعود في آخر اليوم متعبًا (بعد أن فقدت وعدًا جديدًا بعمل) أحاول النظر في عين أبي وهو يتناوم، إنه يرفع يده.. ها هي ذي سقالة تطوحت في الهواء، تسقط على رأس أحدهم.. عليَّ أن أهرع لطلب الإسعاف.. وأظل هناك..

(فصل / 2 / د)

سمراء: هناك أشياء لا أستطيع أن أقولها أريد أن أقولها، فالأرض التي تحملني تحتاج إلى شيء من الشجاعة، هل أستطيع أن أتحدث عن مشاكل الوحدة والعنفوان التى تجتاحني وأنا نائمة ومستيقظة مثلًا! عندما أمد يدي المتشنجتين أحاول أن أمسك شيئًا فلا أجد، لن ألمس أحدًا فليس هناك، هل أستطيع أن أركض في الطريق وأسأل المارة عن هذا الألم الذي كاد يعصف برأسي، لكنني سأمضي معه على أي حال، ما أنا إلا جزء من اللعبة.. لعبة لا أعرف من هم أطرافها الحقيقيون، لكنها تتم، وأنا لست متأكدة من شيء قدر تأكدي من أنها تتم، وأنا عضو فيها.. عندما ذهبت معه

إلى شقته السرية لأول مرة، كان الملل هو الذي دفعني، هناك حل لجأت اليه، أعني فكرت في اللجوء إليه، لكنني لم أقدم عليه، ولم أستطع بعد أن كتبت الرسالة أن أضعها في الصندوق، وسمعت أن الصحفية المشرفة على باب رسائل القراء تفضل فبركة الرسائل بنفسها[1] وتزوج نفسها لرجل مثالي (من ذلك النوع المستكين الذي تفضله كل النساء) وتجيب على أشياء لا تحدث، يا لها من متعة أن تفعل الواحدة ذلك، أن تحل مشكلاتها وهي تقيم عالمًا ممتعًا كهذا، تدير حوارًا مع نفسها، وترسل الرسائل لنفسها متى تريد، أود أن أقوم بهذه اللعبة على مرأى من الناس، كنت مواظبة على قراءة الباب في كل المجلات الأسبوعية (خاصة حواء) والجرائد اليومية، لكنني في تلك اللحظة[2] قررت ألا أمارس هذه العادة مرة أخرى، ووجدت أنه – لكي أكون واقعية إلى حد معقول ومقنع (للآخرين بالطبع) عليَّ أن أذهب معه، فكل الأمور تقودني إلى ذلك، مهما كان، وعلى أي حال لم تتغير معاملته لي، إلا في ذلك اليوم الأول، أعني صباح اليوم التالي، بعد أن قضيت معه المساء (حتى جاء موعد إقفال البوتيك) في الفراش (كانت الأغطية الملونة، ورائحة البارفان، والوسادة النظيفة، وذلك الكسل، كل شيء) الموسيقى الصاخبة، والفتيات الجميلات – بعدها– يترددن

---

(1) حتى لا تقع في الحرج.

(2) لحظة إلقاء الخطاب في الصندوق.

ويضحكن ويتحدثن بشكل فاضح عن أحجامهن (من الخلف تسعون سنتيمترًا، ومن الوسط خمسة وستون ونصف والصدر خمسة وثمانون) ومع هذا، كانت الابتسامة تستمر كالعادة على وجهه المهذب الشوارب، ومع هذا، فهو يتحدث عن "الزمالك" بحماس شديد، وتعاهد مع عدد من لاعبي النادي على أنه بمجرد أن يصبح أكثر غنى في المستقبل القريب - سيطبع صورهم على قمصان ملونة. (سأسافر إلى إيطاليا مهما كلفني الأمر) ومع هذا، فعندنا في البوتيك "تي شيرت" عليه صور "بيليه" و"ديستيفانو"، ومع هذا فهو وقور للغاية (الروك أند رول ليست رقصة قديمة كما يحلو للبعض من أصحابي أن يقولوا، ومهما يكن فأنا أحبها ولا يهمني أي شيء، طبعا أنا أسمع "البوب ميوزيك" ولكنني أحب "الروك آند رول" فهل هذا يعني - بالله عليك[1]- أنني موضة قديمة؟ هل هذا يعني موضة قديمة أو أي شيء) يردد (أو أي شيء آخر) ومرة أخرى (أو أي شيء آخر) منذ صباح اليوم، في الثامنة صباحًا وحتى التاسعة مساءً، وحتى فيما بين نصف الساعة التي نرتاح فيها في الظهيرة أسمعه يردد (مهما كان الموضوع، أو - أي شيء آخر) فهو، وفي حدود المعقول -، يحاول أن ينتقى كلماته، أن يكون له قاموسه، أن تكون تعبيراته خاصة به، وطبعًا هو يتحدث بلغة أصحابه الذين يكررون جميعًا - حتى ولو كانوا يقودون عرباتهم

(1) يقول هذا برجاء شديد.

الفارهة المسرعة بجنون (أو أي شيء آخر) لذا فإن أي شيء آخر لم يعد يهمني، حتى إنني عندما أشعر بالتعب أكتفي بتناول حبتين من الحبوب المهدئة التى يحتفظ بها في خزانة صغيرة جانبية يضع بها أشياءه الخاصة: الماديليات – القداحات – المناديل الورقية – الأقلام – علب السجائر الطويلة والقصيرة – عندئذ أشعر بالنشوة، وبأن النغم الصاعد من سماعة الستريو يهزني من الداخل، عندئذ، أعني أحيانا، أشعر بأنني أود.. وأدق بقدمي. أدق وأدق، لكني لا أستطيع أن أستمر، فأظل فرحة حتى أعود إلى الردهة في التاسعة مساءً.

(فصل ب / 2)

(حطت الأشعة الباهتة على السطح، تدلت من الجانب الأيسر ومالت برقبتها على المقدمة الخشبية، انفتحت الأبواب وفاضت الروائح المتناقضة لرغبات عديدة، تباعدت الظلال في المسافات الممتدة العازلة ما بين البيت، والبيتين المتجاورين، في انحناء ناعم له رائحة الصابون، من حوله بدا العالم فسيحًا من جهة، ضيقًا من الجهة الأخرى، تناثرت حبات من الظلام في الفضاء وحدقت العيون المتعبة إلى الطيور التي تحوم في الأركان بيأس، عندئذ تفجرت ينابيع الرمال الحارة، وهبت على البيت. تناثرت

الأخشاب وقطع الزجاج في الردهة الخاوية. وتراقصت نتيجة الحائط ودقت الساعة القديمة ثلاث مرات تك. تك. تك. ثم توقفت إلى الأبد لكن الصوت ظل يتردد بعد أن هدأ الجو، حتى أن كل الذين لم يكونوا داخل البيت سمعوه، أنصتوا إليه، وبعدها جاء النسيان: على بساط مزركش بالآلام الملونة، والتصق بالجدار، وسالت ألسنة الاخضرار اللزج على حواف المقاعد وارتطمت بالأبواب. كانت القطط تلعق بقايا الحشرات على الدرجات الحجرية بينما انغلق الباب الحديدي وتحطم: صوت رخيم قوي غريب هدد المكان برغبة شريرة اندفعت للداخل، وقفزت للخارج، وحطت في المساحات المتناثرة، وأخذت بعنان السماء، وأمسكت بخصلات شعر الشمس الصارخة، حتى عاد الهدوء يفرض سكونه، وهو ممسك بيده حربة مرتديًا على رأسه تاجًا من ريش النسور الجارحة، وقد بدا ثديا الزوجة المحاربة معلقان في الحبال بين أشجار الزهر التي نبتت على شاطئ الوادي، بينما الغربان تحوم فيما بين الأزرق والبني الخفيف ولون الطمي الهادئ، من هناك كان الطائر الضعيف الذي يحط على نافذة البيت الكبيرة يأتي كل ضحى، عندما يغادر البيت الجميع).

(فصل 3 / أ)

الأم: بين الهدوء والضجيج فكرت مرات فأرهقت بالليل والنهار، أخذت أقص القماش المتبقي من سراويل الأولاد، وأغرس فيها إبرتي وأنا أتوه في الوقت الذي سيعود فيه «علي»، وأي فرحة انتابتني وأنا أرى «سالي» ترتدي الجينز، وتمسك في يدها حقيبتها (....) وتركض كالفراشة، ثم شعرت بعدها بالخوف، لم تكن «سمراء» أسعد حظًّا من «وضاح» ولو تحركت ساعة الحائط – كما كانت قبل أن تتعطل – وأشارت إلى الوقت المناسب، الكراريس التي يلقي بها «صيام» في كل مكان تضع على البيت – وحجرته بالذات – لمسة غريبة وشعورًا بالخوف، (أي مصير ينتظرنا حقًّا) ثم تلك الملابس المعلقة هنا وهناك، هل نحن في بيت مهرجين؟ قالت سالي مرة، وهي نفسها تضع فردة الحذاء في مكان والأخرى في الحجرة الأخرى، وتدحرج نفسها من السرير فنجدها في الصباح على الأرض كالذبيحة، تحوم القطط حولها، لكن الشمس التي تصب أشعتها في المرآة تملأ الردهة بالخيوط الصفراء، وها هي ذي الصور المدلاة من الجدران تعكس الظلال – من جهة، بينما هي من الجهة الأخرى تشير إلى أبي وأمي وأبيه وأمه، وصورة الزواج – بالذات – تضع يدي على الذكريات التي مرت دون أن أتوقف عندها طويلًا. مرة ركبت القطار وكان مسرعًا (ماذا يكون القطار إذن)، فظل صوته يتردد

في أذني نحو شهرين، كنا ذاهبين إلى بقايا أهلنا في المنصورة، وكان الوقت ليلًا. لكننا عندما عدنا، عدنا بالنهار، وكانت الأبقار والجواميس ترعى في الحقول، والفلاحون يتحركون في الغيطان والفتيات يحملن الجرار على رؤوسهن ويبتسمن للقطار – أو ربما لنا – لكن، عندما انقطع صوت القطار، كان الوقت قد مضى على تلك الزيارة، ولم نعد –بعد القطيعة – نركب القطار (فأين نذهب، نحن هنا في البيت – أعني هنا في الردهة، أشتاق إلى الذهاب إلى حديقة الحيوان) أرتق سراويل الأولاد وأملأ الآنية بالخضار، أقلب بيدي كل شيء، وأتحسسه، لكن ألا يحل عني ألم المفاصل اللعين؟ رائحة الصابون تحيل كل شيء إلى رغوة، مجرد رغاو وفقاعات متطايرة في الردهة، أعني الحمّام، الأولاد يرددون الأَناشيد في طوابير الصباح في المدارس المجاورة «بلادي. بلادي. بلادي» حتى ينصرفوا في الظهيرة، أسمع أصواتهم المتقطعة وأجراس المدارس تحذر من شيء ما، عندما كنت أعمل في مدرسة المنيرة – في مطلع حياتي– كنت أقضي أغلب اليوم وأنا أرقب الأطفال – في الحوش، وهم يقفزون للأمام، وينثرون التراب على رؤوس بعضهم وكانت الكرة تجعلني لا أعرف متى ستسقط فوق رأسي، كان هذا جحيمًا، والآن، حتى يحين المساء، عليَّ أن أمشي في الردهة، من النافذة إلى الباب، وبالعكس، ثم الطريق المزدحم إلى سوق الخضار المجاور.. وبالعكس.

(فصل / 3 / ب)

صيام: براميل الزيت الفارغة تحدث «دويًّا» خافتًا في الهدوء، الفئران تركض خلف الأدراج وتصمت عندما تسمع حركة قدميه وهو قادم من المقهى، سيكون اليوم «حسنًا» وربما انتهى الأمر بانتصار فريق الكلية (حتى تكون نهايته حقًّا سعيدة) علينا أن نسحق فريق الآداب ٣ – صفر على الأقل، فهم مغرورون إلى حد فظيع (أحب أن أرى المغرور ينهزم ويسقط باكيًا أمامي على الأرض) فريقنا ضعيف وغير منظم نعم، ولاعبونا يتطلعون أثناء اللعب إلى الفتيات[1] لكن هذا يزيد الأمر حماسًا، سأشتري كيسًا من الفشار وأجلس على حافة السور وأرقب الأمر بدقة حتّى أعرف أيًّا منهما «سلوى» أم «سامية»[2] هي التي تحب كارم[3] فالأمر يحتاج إلى دقة بالغة تحسبًا لسوء القصد، ها هو ذا يتحرك من مقعده على طوار الطريق، أي تعاليم فاشلة يحاول أن يحيط بها نفسه أخي وضاح؟. إن الخطر قريب مني (إذ إنني أفعل نفس الشيء) عليّ أن أحطم هذه المحاولات كما سوف يحطم فريقنا فريق الآداب، (سينتصر العالم القديم على الروايات!) أي مدرس جامعي فاشل هو! إنه – حتى – ليس لديه سوى سترة واحدة تليق بمدرس للتاريخ، أما البقية:

(1) حتى أن أحدهم أخذ يجري ويضرب الهواء بينما كانت الكرة مع الفريق الآخر.

(2) هذه الأسماء.

(3) مايسترو الفريق.

فهي مجموعات الكتب التي تمتلئ بالمعارك، الحياة بالنسبة لي على الأقل – حلوة ما دامت هناك فتيات كإكرام (فأنا أعشق النظر إلى السيقان الجميلة) ومهما كانت المسألة بيننا، (لم أكلمها سوى مرتين وكان الموضوع خاصًّا بالمسطرة التي وقعت منها وناولتها إياها في المرة الأولى، ثم تكرر الأمر في الثانية، وأظن أنها قصدت ذلك) فإنني أستمتع – على كل حال– بوجودها هناك، ما دامت إكرام في الكلية تهز ساقيها على السور فإن كل شيء يهون، تلك الدروس السخيفة، ووجوه الأساتذة الجهمة، والوقار وكل شيء، هل هو ذا قد جاء يتعكز[1] فعليَّ أن أنسحب، فدوري ينتهي بمجرد مجيئه من المقهى وبعد أن أشم رائحة الشيشة التي تسبقه، يصبح من حقي أن أذهب لأرى إكرام أو مباراة كرة القدم وأنطلق بمفردي أزاحم الناس على الأرصفة، أو أتغنى معهم بنفس اللحن، لا، الأفضل أن أتغنى بلحني، لأنني أمشي بمفردي[2]، طبعًا، ولو كان هذا من قبيل معرفة الواحد لمدى ما يكون عليه صوته من جمال[3]، وتظل تغني وتغني، وأنت ماشٍ على الكورنيش متوهًا لا يشغل بالك شيء[4] لكن، وعلى أي حال، إن لحني لا يتركني لحظة واحدة، حتى عندما أغرق في تتبع مباراة كرة القدم، أو أدخل

(1) وهو يمسك خصره الضعيف بيده.

(2) بعكس ما يحدث أثناء الشغب.

(3) كلهم يضحكون عند هذه النقطة.

(4) قال وضاح: لم أعد أستطيع فعل ذلك.

في نقاش ساخن دفاعًا عن نادي الكلية، أو أستغرق في لعبة الكوتشينة في شقة أحمد السعودي، أو أثرثر مع ليلى القبيحة حول مظهر الزملاء في الكلية[1] ها هي ذي الطرقات مسدودة أمامي، والناس يجرون، إنهم يركضون، ها هو ذا شاب رفيع يحمل بيده سبتًا يركض على الرصيف. وأم تحمل رضيعها على كتفها تركض أيضًا، إنهم يركضون ويركضون. يمكنك أن ترى بنفسك الناس وهم يركضون، أو يلهون بقاماتهم، أو يتسلقون الأتوبيس ويستمتعون. أو يقفزون داخل الأبواب المفتوحة. نظر لابس النظارة إلى وجهي وقال (أنت؟ من أنت؟) ودس ذراعه في فخذ الطالبة بإتقان، هذه هي قبة الجامعة،[2] ياه، لقد مشيت من المنيرة إلى هنا؟

(فصل / 3 / ج)

الأب: لم يكن لطيفًا بالمرة، أن يصحو المرء – وهو في سن متقدم – على حلم مزعج كهذا، لكن، دعها تفعل ما تشاء، أنا أخمن أنها رغبة أكيدة في التخلص من الحياة، مسكينة هي على كل حال، مرت بتجارب قاسية (وصلت إلى حبل مشدود في نهاية السباق) ورأت

---

(1) إنني لا أهتم كثيرًا بالآثار.

(2) مررت قبلها على الكوبري فوق النيل.

الأهوال المحدقة، الأولاد في حاجة إلى إعادة الصلات بالأقارب، أين هي أم محمد؟ لماذا لا تجيء؟ يجب أن أستعيد لهم الصلات ولو كلفني هذا تنازلي عن وحدتي التي حصلت عليها بعد كفاح، فالناس يتسببون في المتاعب على كل حال، ماذا قال "عمر"؟ لا يصح التفكير في هذا بعد ضياع الوقت، بعد فوات الأوان، إنه يهذي في الصباح، يمسك شيشته ويهذي، الجميع يعرفون هذا، يهذي في الصباح، الولد "بلبل" الجرسون قال ذلك: "لا أستطيع أن أخالفه الرأي في الصباح يا سيد / أحمد، حتى ولو كان جالسًا وحده وطلب طاولة في الصباح، فإنني لا أستطيع أن أخالفه، لا بد أن آتي له بها، إنه شرس جدًّا في الصباح، ربما، لأن مظهر المقهى المكتظة بأشياء آيلة للوقوع يثير ضجره بعد أن يقوم من النوم، وهو على كلٍّ ليس له مكان سوى المقهى، يعيش في نفس المبنى بالطابق الأخير، ويجلس فيها طوال الوقت، طوال حياته، هذه المرآة اللعينة تجعل وجهي يبدو كفقراء الريف المتعبين، هذه النتوءات، المشيب؟ لا يهم المشيب. آه. هذه الأشياء. هذه العلب والبراميل والأرفف، هذا العنكبوت، لماذا يتقادم كل شيء حقًّا وتتبدد قدرتنا على تجديده؟ هذا الرصيف مثلًا، لم يكن مليئًا بالحفر ولا الطريق، كما أن لون دكاني كان مبهرًا منذ فترة، منذ تركت الوظيفة، على أي حال، هذه العلب تضفي على المكان جوًّا من الكآبة، (نافذة وحيدة في حجرة صغيرة إذا أغلقتها أصبحت جحيمًا) يكاد المقعد يتهاوى، أما البنك فعليه طبقة من

الزيت، لا يهم البنك وأظن أننا في حاجة إلى جيش أسطوري يمر بفرشاته على كل شيء ويدهنه بلون أبيض مبهج ويحيل العالم إلى لمعانه، لا تتنسخ الأشياء إلا بعد أن تتقادم، بعد أن يعفي عليها الزمن وتصبح بالية، عندئذ يتطلب الأمر التغيير، ربما مجرد دهان الأرفف لن يفيد، لا يجدي دهان الجدران، لكن هذا يكلف كثيرًا من الجهد والوقت، (أليس كذلك؟) ثم أن الأمر محتاج إلى من يحسن النظر، من يختار لنا اللون المناسب، فيا أيها المقعد المتهاوي هل سيجدي الأمر عندئذ، لم أصبحت الأشياء على ما هي عليه، أي فائدة في أن شيئا آخر لم يحدث، وأي ضرر في أن نلقي بأشيائنا القديمة. لكن، لا، لا يجب أن أصرح بهذا لأحد، لن أنشر همومي، وهذا كل ما في الأمر.

(باب / ت)

تناثرت حبات من الشمس على السطح المترب، تحركت الأوراق الجافة قليلًا بفعل ريح دافئة خفيفة تمر على أعالي الأشياء، (أصوات صاخبة هناك في الطريق) ريح ثقيل لا تستطيع الوقوف أمامها (ريح الفيل الثقيل الخطو) وانحرفت ومالت، بينما حبات الشمس تكبر من جانب وتتقلص من الآخر، والظل.. الظل الضيق من الشمال اتسعت مساحته بينما حل الضوء في المساحة الأخرى،

صوت المذياع الخشبي القديم بدأ يحتوي الصمت (في الداخل) والأم تحوك الملابس الممزقة محاولة أن ترتق الثقوب، (صوت الإبرة المعدنية تنتشر في الردهة) أما صوت المذياع فقد بدأ يلملم الصمت ويكومه في الأركان، وارتدّت المحاولة في حركة هستيرية بين اليد والخيط والثياب، واتضح ذلك بجلاء بعد أن ألقت بكل شيء، وأعادته الى مكانه، وكفت عن المحاولة، وحاولت شيئًا آخر، أخذت تمشي في الردهة: من النافذة إلى الباب الداخلي، أخذت تمشي مسرعة ثم في هدوء وبطء كمن لا يريد أن يوقظ الغرف النائمة.. الأبواب الواقفة أو الشبابيك المشرعة ضلفاتها للداخل، الساعة، والنتيجة، صور العائلة القديمة، مرة أخرى.. المذياع الخشبي، الأواني والمقاعد، الأسرة. الملاءات والمراتب، كل ذلك: مرة أخرى.

لكن حبات الشمس تساقطت على أرضية الردهة، وصوت أجراس المدرسة ارتفع من بعيد مرة أخرى، وصوت التلاميذ، والحنين إلى القدرة على تحريك اليد[1] كل ذلك قد استيقظ، لكنها لم تنخدع بخيوط الشمس الآتية، ولا انعكاساتها على المرآة الكبيرة، أقفلت الدولاب، وجلست تستمع للجلبة الآتية من الخارج، إلى الباعة الجائلين وصياحهم، إلى الجدل الذي يدور تحت النافذة، وأصوات العربات المسرعة في الطريق الخارجي.

(1) أو أي شيء آخر.

مشت إلى الباب الكبير وفتحت مصراعيه، ثم نزلت درجتين.. كانت الشجرة العجوز واقفة فوق ظلها النحيل المتعرج وحبل الغسيل يتراقص بالريح الخفيفة، والباب الحديدي الصدئ مائلًا على جانبيه، والأوراق الجافة تتحرك على الأرض، رأت كل شيء كما كان، وطفلًا يرتدي مريلة يركض ملوحًا بحقيبته ويختفي[1].

تراجعت، وأغلقت الباب، وجلست تستمع إلى أغنية عن "الجروح" بصوت هادئ.

لكن حبات الشمس التي كبرت غطت الأرضية وانسحبت من الأمام بحركة واحدة، ومن الخارج، هناك كان البيت كله قد بدا غارقًا في الشمس، وتحولت الظلال وتجمعت من الناحية المقابلة- لتلك الشمس - في الضوء الذي امتد ولامس البيت المجاور. (وتمددت الذكريات من حوله) كانوا جميعًا هناك، الأب، وضاح، سالي، علي، سمراء، صيام، الكل في الخارج يتشبثون بصورته، ويتجهون إليه، في كل وقت وبعد كل رحلة، بعد كل خروج يقومون به بالليل أو النهار[2] البيت هناك والشمس من حوله دائمًا.

وكل شيء واضح، الأصحاب يلتقون به، يتمددون ليريحوا أجسادهم على أسرَّته، يحتمون به من صقيع الشتاء، في الصيف

---

(1) حذاؤه كان واسعًا.

(2) ساعة أو يومًا.

يستظلون بسقفه، يثرثرون في الردهة، يشربون ماءه البارد من القلل التي على الشبابيك.

عندما يقترب أحدهم من مدخله يشم رائحته، في الليل تعاودهم الأحلام في ظلامه، وسمراء تتأمل القمر من نافذته.

هنا، تحت السقالات الخشبية العريضة، ناما معًا وتمددا حتى الصباح، في الحجرة الكبيرة المتجهة إلى الشرق، ترددت أصواتهم وهم يخرجون - منها - مبللين بدمائهم، والآن أصبحوا: وضاح، وسمراء، وعلي، وسالي، وصيام، والظل حوله[1] ينسحب بهدوء كلما تقدم الوقت.

(فصل / 4)

سالي: الرائحة الهادئة تختفي شيئًا فشيئًا، الحروف والأرقام المرصوصة (في الآلة الكاتبة) تستعيد الأنفاس وتقف، إنني أتأمل الأشياء من حولي، لكن جاء موعد التفكير، بعد أن حل وقت الراحة (هذا الذي أجدني فيه أحيانًا لساعات طوال). أعيد النظر في المسألة كلها، فلا أجد أي فرق، إنني مُساقة بحكم العادة، بعد أن استجبت له وحدثته للمرة الأولى، بعد أن ابتسم لي وكلمته في الطريق، وعبر عن حسن نيته تجاهي – لإعادة النظر مرة أخرى، هناك شيء

(1) ذلك البيت.

ما يقف حائلًا بيني وبين أن أتقدم خطوة واحدة، على الرغم من أن أشياء كثيرة – ليس أقلها ذوقه في اختيار ملابسه – تدفعني للتشبث به، أحيانا أرى أن الأمر– لم يكن من الملائم أن يتم بالطريقة التي تم بها على الطريق: «ماذا في هذا؟» أسأل نفسي كما سألني عندما أخبرته بالحقيقة: «لقد تعرفنا في الشارع يا حمزة ولا يجب أن نتورط في الأمر أكثر من هذا حقيقة، ما الذي كان سيتغير لو تم الأمر على نحو آخر، لو أنني عرفته في مكان آخر، ليس المهم – هكذا أفكر أحيانا–[1] كيف تكون البداية، لكن المهم، المهم؟ ماذا؟ لا أعرف، ربما كان صعبًا أن أفكر في "المهم" بهذه الطريقة، أو بأي طريقة أخرى، هل أنا مساقة إلى الاستسلام لمشاعري التي لا أعرف لها وضعًا ثابتًا، كثيرا ما رأيته مريحًا وفاتنًا (يستطيع أن يتحمل معاناتي) أعني المصاعب التي لا بد منها، وأحيانًا أجدني – بالذات عندما تكون بيدي زجاجة سفن آب– راغبة في تحطيم شيء على رأسه، ولم أكن أبدًا أشد غضبًا من تلك اللحظة، عندما قال: نحن لسنا أحرارًا، ما الذي يا ترى كان يعنيه بذلك؟ طبعا أنا أعرف أنني في النهاية مجرد سكرتيرة، ماكينة على الآلة الكاتبة، وهو شاب، وبالتالى، يمكنه أن يكون أي شيء (فالدنيا أمامه واسعة) هكذا أستطيع أن أرى، لكنني أركب

(1) كما أفعل الآن.

الأتوبيس وأنحشر بين الرجال، فأشم رائحة العنف[1] لكنني أيضًا وهذا ما لا يستطيع أن يجادلني فيه أحد، أحب الأشياء الصغيرة الجميلة، اللون الأبيض الناصع يستهويني، وكل شيء من هذا القبيل وهو (الغائب دائما) يخبئ عني ماضيه ومستقبله. و.. طبعا هذا أمر مزعج، من لا ينزعج من شيء كهذا؟ لكنه – أعني المدير– يكشف عن مستقبله بوضوح وثقة، ويعمل من أجل ذلك، لذا فإنه مريح وواضح، لا أعني من ذلك بالطبع أي شيء آخر سوى أنني أريده أن يكون هكذا: مريحًا وواضحًا، وهذا يجعل الجميع في حالة تماسك، عندما أعود إلى البيت أشعر بأنني آلة مفككة، صدئة، يحتك كل جزء منها بالآخر في صعوبة، ماكينة في حاجة إلى زيت، لذا أجدني دون أن أريد، ألقي بملابسي كل قطعة في مكان، وأقضي عشر دقائق كل صباح لأبحث عن فردة الحذاء[2] الضائعة، عندما أمسك بضلفة الشباك لأغلقها، أشعر بأنه ما كان يجب فعل ذلك، لكنني أتمادى دون أن أحدد الموقف، فالصور المعلقة كيفما اتفق، والدواليب المهتزة مع كل خطوة، والفراش المترهل، كل ذلك يعمل على سيبان الروح، لذا (وهذا ما تمليه علينا الحياة) فإننى سأفرش بيتي بأشياء جديدة، أنيقة، متينة، وصلدة، وأضع كل شيء في مكانه المناسب، ولا أظنه سيوافقني

(1) أرتاح أحيانًا وهي من حولي.

(2) أو الجورب.

على أي مكان أختاره لأي شيء، فهو الآخر، ككلهم، كأبي وأمي، وسمراء، ووضاح، والجميع.. يريدون أن يضعوا الأشياء في أماكن تريحهم، وأن يتعاملوا معها بالطريقة التي يرونها، أنا مثلا، أحب "اللبان" الملفوف في أغلفة أنيقة ملونة، لأن هذا يتناسب مع الطريقة التي أضع بها الباكو في الحقيبة، مع الطريقة التي أضع بها القطعة في فمي، أليس من حقي أن أسأل: لماذا لا تكون لي طريقتي الخاصة في مضغ الطعام؟ أمي مثلا، تدس قطعة الخبز في فمها كمن يأكل للمرة الأخيرة[1] (إنني أراه يطاردها في كل شيء، أرى ظله يقف على جانب وجهها كانعكاس الضوء على البروفيل) وهذا يغيظني، يدفعني للبكاء، كثيرًا ما بكيت (تحت الغطاء الثقيل) بعد أن حدثت أشياء أمامي- من هذا القبيل- لم أستطع أن أقاومها، حتى أنا آتي أشياء من هذا القبيل، أفعلها دون قصد، آتيها لأنني أحبها، أحبها حتى الموت، لكن المسافة، هذه، أعني المسافة بين هذا وذاك، تكاد تكون مستحيلة، ولا أحد يشارك أحدًا أي شيء، نحن هكذا، كل واحد يمدد قدميه في مكان، ولا أحد مع أحد، هذه الشجرة هناك، هناك، بينها وبيني مسافة، لو أردت أن أطلع وأجلس بين غصونها، لو أردت، لو حلمت به مرة، فإنني بين أمرين، وربما ثلاثة، وربما أربعة[2] بلهاء، مجنونة. شريرة، إلى

---

(1) أو الأولى.

(2) من يعرف.

آخره، فكل هذا بل كل هذا وغيره، ودون أن أفكر فيه، يطلع أمامي وينبسط كهذا البساط الأحمر، وهذا على الرغم من لذته، يسبب انفجارات صغيرة لا يحتملها غيري، لذا فإنني لا أقولها حتى له، لم أقل هذا لأحد، لا سمراء، ولا وضاح، ولا سالي، نفسها، (هذه التي ترونها أمامكم)، مرة، جريت بين الأشجار في حدائق القناطر، في ذلك البستان، وكان الجو رطبًا وكل شيء يستهويني، فجريت حتى الشاطئ[1]، وهناك لم أستطع أن أتوقف، ورأيت الماء وكان يريدني أن أنغمر فيه، لكن عندما شعرت ببريق الغرق أمام عيني كالضوء الخاطف، تنبهت وعقلت، وأدركت أن عليَّ أن أقف، أقف فعلًا، وفعلًا وقفت، وكل ذلك كان في لحظة، ثانية واحدة خاطفة محددة، لم أشعر بها، لكنها تلبستني، هكذا فعلت عندما ارتميت بجواره على الفراش، وقبلته للمرة الأولى[2] فأنا: على أي حال ومهما كان، لا أريد أن تفلت الدقائق من عقارب الساعة، لذا، فإنني لا أكن أي عاطفة للساعة الخشبية، فأي دافع غريب يتساقط من السقف المرتفع، لقد كنت معتدلة فانحنيت، واقفة فجلست، أضع يدي بشكل معوج فحركتها، وأي غرابة في أن يحدث ذلك؟ ولو تغير الوقت، وجاءت الظهيرة مثلا، ما الذي يجعلني أشعر بالخوف وبالضياع، يا لمنديلي المبلل المسكين، لقد

---

(1) وأنا لابسة فستاني المشجر.

(2) سبقتها مرات لم يكن لي نفس في شيء، ولم تدفعني حتى الأحلام إلى تلك النبضة.

تحملت عني وساخات كثيرة، هل أنا على حقيقتي الآن، أنا وحدي، بيني وبين الجمع ردهة ليس بها أحد، ومكتب تركه صاحبه إلى مهمة خاصة، وبواب ينعس على مقعده بجوار الباب، ونافذة تعكس ضوءًا خفيفًا، ورائحة تعاود الظهور بين شهقة وأخرى، إن هذا أمر لا يحتاج إلى مراجعة أحد، لا يتحمل الأقاويل، فكل ما تعلمته على يد الآخرين يقف في حلقومي كعظمة في حلق حيوان، لكن، هل الركض مهنتي، لا، فأنا أجد الجلوس على هذا المقعد مريحًا للغاية، ربما كان فقر خيالي[1] له سبب واحد، هو كل هذا مجتمعًا مع بعضه، هذه المجلات الأجنبية مثلًا، لماذا لا أستطيع أن أقرأها مثلا، إنني لا أستطيع، ولا أظن أنني بعد أن أتعلم الفرنساوي، بعد أن أستطيع التحدث بطلاقة، لا أظن أنني سأفعل أكثر ما أفعل الآن: أقلبها[2] بمتعة وأنا أتابع الصور المتتالية أمام عيني في حذر، وربما أن هذا لا يستهويني، أو أي شيء آخر، فلماذا أجدني مرتبكة، في حالة غيظ من الهدوء مقيدة من أطرافي الأربع، كخروف شرس، طبعًا، هذه النعومة سلاح خطير، لكن، كل شيء يضيع عندما لا يكون الوقت مناسبًا، عندما يحدث في غير أوانه (أو مكانه أيضًا) بالأمس، وقبل الأمس مشيت في شارع سليمان، ودرت حول ميدان التحرير ورأيت الناس

(1) الذي تشهدون عليه، وقد حذرني منه وضاح مرات كثيرة.

(2) على طبق من الأوهام.

ورأوني، ثم رأيت فيلمًا عن حادثة قتل في شارع قصر النيل، وعند المنحنى رأيت شابًّا يصك أصبعه في تلميذة تهز ردفيها فبكت، لماذا بكت، ولماذا فعل ذلك، ولماذا كانت تهز ردفيها، لا أعرف، لكن منذ تلك اللحظة أشعر بأنني أهز.. أعني أفعل كما كانت التلميذة تفعل، وكما تهز سمراء، وأمي نفسها، أذكر أن مدرسة التاريخ شرحت لنا الأمر مرة[1]، وقالت إنه يعود إلى وقت متأخر من الزمان، ربما قبل بناء الأهرامات، ولكنها غير متأكدة، وراحت تفعل بحذق ومعلمة، والحقيقة، أني أستمتع عندما أمشي في الشوارع وأراهن يفعلن هذا (يا أيها الرئيس، يا أيها الرئيس) لكن: ما الذي يجعلني أخرج من الحجرة، أليس من الأفضل أن أراجع الأوراق فلربما وجدت الخطأ (سماؤنا الزرقاء الناصعة التي لا تمطر فتغرق البيوت وتفسد الزرع، والطرق، والجسور خالية من السحب)، أي مخطرف أهوج هذا الوضاح؟ ما الذي جعله يكتب لي هذا في مفكرتي: لكن خطه دافئ وذو تلقائية جعلتني أعجز عن أن أمحو هذه العبارة – التي لا أفهم ماذا كانت تعني أكثر مما تعني ما هي عليه.. تلقائية لها روح تتنسم بها الكلمات، ومع هذا فالأمر يحتاج إلى مساعدة من نوع آخر، يأخذ عني ما يتغير كل لحظة أمام المفاجأة، شيء آسر وأخاذ لا يتكرر، شيء يحدث لمرة واحدة، يكون بها كل شيء، ما أريده، ما أفكر فيه، وما يمكن أن يخطر

(1) في الإعدادية.

على بالي، ليس الآن، ولكن في كل وقت، بلا زيادة ولا نقصان، كفستان محاك بعناية على الجسد، يظهر مفاتنه وخدوده، فهل أطلب المستحيل!. أليس بالإمكان أن يتحقق ذلك، على الأقل، ولو حتى لمجرد أن يستدل الجميع على الطرق الحسنة للأحلام، سيقول البعض إنها نكتة، وستقول سمراء.. "أنت أنانية للغاية، تريدين كل شيء وهذا غريب"، لكنهم لا ينكرون، فهكذا الجميع، الكل يتعلمه في الصغر ويتقنه في بقية الحياة، وفي النهاية، بعد أن يتحقق أو لا يتحقق، تفترق بنا الطرق، سعداء وغير سعداء، هذا ما أراه حولي، فكل أولئك الذين يمرون في شوارع القاهرة ترتسم عليهم علامات واضحة، فمن أي الفريقين أنت؟ هذا هو السؤال، وأنا أفضل الانتصار كأي جرذ يتسلق الجدار وهنا يمكنني أن أتحدى، فأين هم أصدقاء وضاح، وصيام، وسمراء، وأبي، لقد صاحبت الكثيرات منذ الطفولة، ثم تركتهن كُلًّا في مرحلة، وبعد وقت لم أعد أهتم بالصدمات، لم يعد يدهشني أن تكون إحداهن بجواري على التختة مدة عام دراسي كامل، ثم تسحب يدها من يدي في الطريق، ولا أراها، الجميع يستصعبون الأمر، ولا أحد يطل من النافذة، فأنا في وضع مثالي للغاية، الجميع هنا: في الحجرات، من هو الذي فكر أن يخرج خارج السور؟ وأي لون للجبل الشرقي، من هو الذي ذهب ليستكشف الكهوف، أي صورة يكون عليها وجه طفل في الجنوب، كيف يبنون البيوت هناك،

نعم، رأيتهم في الخروج، يوم ودعنا "علي" في الميناء، وكانوا هناك يلوحون بالمناديل، تلك المعلومات المدرسية عن الوديان والقرى نسيتها، فحينما بلغت الرابعة عشرة، ركزت بصري على ما حولي جيدًا، نحن أيضًا، أعني الفتيات، ملصقات فوق إعلانات السينما بشكل أو آخر، عندما بلغت العاشرة وبدأت قسماتي تبين وتتضح، بدأت أمي تعلمني طريقة المشي أمام الرجال، وشجعتني على الرقص في المناسبات من باب المجاملة، هناك إذن قواعد لفتاة مثلي، وقاموس غير مكتوب من شتى المعارف، فلماذا إذن؟ أعني، يجب أن أكف تمامًا عن ذلك، وعليَّ أن أهتم بالأمر بطريقة أخرى، الباب يفتح، جاء وقت الرحيل.

(باب/ ث)

(لم يكن البيتان القريبان قد ابتعدا، وكان ظل البيت واقفًا بجواره.. أما الطريق فقد امتد من الشمال والجنوب ومر وسط خرائب القمامة: حيث كانت القطط والكلاب تتصارع -بينما اكتظت الناحية بالفئران، ومن هناك، توالت البيوت على الجانبين- حتى تطرفت، وخرجت من المدينة، والتقت بالمستنقعات والمزارع، أما الناحيتان، الشرقية والغربية، فقد اكتظتا بالمباني الجديدة، حتى شاطئ النيل من جهة، ومقابر

الموتى من الجهة الأخرى، لكن المآذن – على كل حال – كانت هنا وهناك، وفيما بين كل ذلك كانت القاهرة تكتظ بالحركة وبالأصوات، العربات التي تصرخ وهي تنهب الأرض، الباعة المتجولون (في ثياب ملونة) ينادون. بأصوات متداخلة يغنون.

وعندما مالت الشمس قليلًا وانحسر الظل، حول البيت من الناحية الأخرى.. بدا أن الوقت يتحرك على الرغم من أن أحدًا لم يكن هناك، سوى الأم المنصتة إل تلك الجلبة الآتية والألم يعاودها وهي تنقل الأشياء، وتنشر المفارش على حواف النوافذ وتنفض الأتربة عن المقاعد وتزيل أعشاش العنكبوت من الأركان، وقبل أن تنحرف الشمس ناحية الشمال، كانت قد عادت من السوق، ومسحت الأرضية بالماء وغسلت الآنية، وبدأت في تقشير البطاطس، ثم تذكرت فملأت القلل وغسلتها من الخارج، ووضعت عليها الأغطية النحاسية اللامعة، ووضعتها في صينية، على حافة الشرفة، في مواجهة الريح، لكنها جلست وعاودتها الآلام مرة أخرى (وتذكرت آلام الحمل فيها مضى) وعاودتها أفكارها – وقبل أن تنظر إلى ساعة الحائط، أعادت ترتيب بعض الأشياء التي كانت قد نسيتها، وشعرت بخوف، تلفتت في أرجاء البيت، لم يكن هناك أحد سوى تلك الأصوات!

(فصل / 5)

وضاح: أحمل عتادي، وسلاحي، وأضرب ببصري في الصحراء الممتدة من حولي، إنهم جميعًا يتطلعون إلى الأفق، يخرجون من الخيام ويتطلعون إلى هناك (الجيوش هناك) لكنني، وأنا في وضع الاستعداد، أشعر بأن نتوءات الصخور من حولي تود الغوص في المتاهات، أشعر بأن الأيام تمر، ها أنذا في الفضاء المتوالي من جهة الشرق يهزني البرد، تمد الريح يديها لتخلع عني ملابسي، أزرار البالطو الثخين تتطاير في الهواء، إن وضعي يتبدل بعد لحظة من التفكير في موقف مغاير، ليس لديَّ فلسفة متماسكة عن شيء، ولكننى أرى الحصار يكاد لا ينفك، أي منفعة في دراسة التاريخ، في تلك الحكم والعبر التي ملأت بها رأسي، تلك التي سأقوم بحشوها في الرؤوس الأخرى، وبعد وقت يكون عليَّ أن أضطلع بحالي وحيدًا، سوف أنعزل في الأركان معتمدًا على ساعدي، أحفر خندقي الذي أموت فيه، بعناية أهبط به مائة وخمسة وسبعين سنتيمترًا، كي أتمكن من الوقوف في وضع استعداد لمجابهة المخاطر، ها هي ذي الشظايا – الهادئة في صمت الليل أو ساحات ضوء النهار الممتدة – تتناثر من حولي وتحدث امتلاءً في المكان، الجبال الحمراء الواقفة بينها وبين السماء خط عريض من القمامة التي تتقدم كلما تقدمت

حولها، أزحف وسط الجنود نهز البنادق في انتظار دحر العدو، الوطن ينادينا في الغروب الدامي، على بساط من الجنازير المدوية تعلو الأقدام على الصخور، وفي الليل نعود لذكرياتنا، أحمد وخليل وقاسم يفكرون في الطيور الضعيفة السابحة فوق أشجار النخيل وامتداد خضرة الحقول، هناك، في قراهم.

سليمان يراجع خطاباته - وحساباته - في تعبير ميلودرامي- ممثل يستطيع أن يقضي وقته وهو يسكب ذكرياته الدامعة أمام الجنود. لكنه، ماذا يقول المرء، كان يود أن يبقى هناك، إن له أسبابه الخاصة[1] وهكذا بالطبع - الطريق صعب والأرض مقفرة[2] الشبابيك التي تنفضها أمي كل صباح، يقف الخوف على أفاريزها، أتطلع إلى الوجوه المحشورة في العربة - وهي تطلع الجبل الأحمر- وتهتز على أصوات المركبات الخشبية (الطالعة على جبل جلعاد) أدور ومن حولي آلاف السنين المحدقة، وهي تحمل على كتفيها الهزائم، في سلال من القش، إنني المنتصر الوحيد في هذا التاريخ، أحمل سلاحي وأتربع على قمة الجبل، تلك الأرض الجرداء، ستمتلئ زيتونًا وبرتقالًا له رائحة، سآكل عناقيد العنب وأنا مسترخ[3] أتوه في أوهامي وأطلق الخيال،

(1) لقد خسر الكثير.

(2) هكذا قال أحدهم.

(3) فقط أمد يدي إلى العريشة وأقطف العناقيد.

سأصطاد بشباكي سمكًا وأشويه على الحشائش، يسبح الإوز الأبيض على صفحة النيل السمراء، و(أنا أداعب بيدي خصلها الداخلية)، نعومة البشرة تخدرني، أركض حافيًا على الصخور مستمتعًا بصيد الفراشات (أي خيال انتاب عقلي للتو واللحظة) إنني أتطلع إلى يد تفتح لي القواقع المغلقة، أستشرف وأرفع يدي عاليًا، حينما سألوا السيد لورانس داريل[1] عما وجده قد تغير بعد غياب ثلاثين عامًا عن القاهرة قال (بعد أن أكد أنه لم يغب طوال هذا الوقت): الشيء الوحيد الذي لم يتغير وما زال ممتعًا أن يكون ممكنا لك الزواج من أربع نساء، وابتسم ابتسامة لها معنى (كما قال الصحفي) فأنا هارون الرشيد المجرد من سلاحي على طول الخط، «صيام» ليس وحده الغائب عن الوعي، إنني أيضًا أحن لأن أشجع «الأهلي» أو «الزمالك»، حتى وحينما يسألك الملكان تقل لهما أنك كنت مشغولا.. لم «تأخذ» بالك مما يجري أمامك وربما كان القتل سهوًا، أنت على كل حال لا تعرف عن هذه الأمور شيئًا، ليس من حقك أن تستمتع باحتلاب ريقك. فهذا المدى الذي هناك يفتح مساحات تالية من الدهشة، تركض فيها الخيول العربية القافزة في بحار السماء الزرقاء، النجوم من حولي تغدق عليَّ بلا نهاية، تنثر تبرها وماءها.

"أيها السيد – أيها السيد" من ينادي وهو مقفل الفم؟ حينما

---

(1) في صحيفة الصباح.

كنت جالسًا في الصباح، في ظل الخيمة، وكانت الرياح تفرق المدى في دوامات متوالية، تنبهت لحقيقة جلوسي على الصخرة، انتابتني قشعريرة من أنني محمل بأعباء تحجب عني عناوين الخيال، (لِمَ ينظر الجميع للجميع في تفحص المخبرين؟) لم أر أحدًا بجواري وأنا معلق على فرع الشجرة الجافة، متذكرًا أن الفيل حينما تأتيه المنية يمشي إلى مكان موته، مقبرته، ويجلس ممددًا زلومته في استموات، ووجهه للريح، للعاصفة. هذه هى الوجوه تتصلب (هناك في الردهة)، الحشرات تخرج من ثقوبها، تتطلع إلى مقدم الزوابع، أي حكايات تحكيها العصافير النائحة على فساتين الصغيرات الملونة؟ هي ذي الأيام تمر بي، تدوس بحافرها على قلبي، كل كلمة تقال أشعر بعقب الحذاء يئز من وطأة القدم على قلبي، كل له دوره، حتى الصخور الحجرية المترعة بالرغبة الجافة، كل الصخور تدوس على قلبي. فأي غرابة في أن تنتابك لحظة يمر بك خاطر شرس بأن تحمل رشاشك وتفرغه في رؤوس الأشهاد، يا له من منظر مؤثر بالفعل أن تجلس على مقعد منهار، وتقرأ جريدة، أي جريدة على الإطلاق، وتحتسي الشاي، وأنت في بيجامة الكسل والنوم والخدر والفراغ[1]. لكن الطريف في الأمر أنني أمسك الحبل لوحدي، لذا فإنني لن "أعقد

---

(1) على المقاهي، وفي الشقق، والمكاتب، والمحلات، والشوارع والأتوبيسات، والبارات.

قراني” بأحد، لذا فإنني أتساءل –منذ الآن– من سيلعب الدور الأساسي على خشبة المسرح، يومًا تنبهت للأمر فنصبت لهم الفخ وانتهيت إلى نفس النتيجة، خرجت من البيت وقضيت يومًا حافلًا بالمقابلات رأيت تقريبا كل الذين أعرف– وكنت لطيفًا معهم (متدنيًا إلى حد الصغار) وفي المساء كنت قد حصرت النتيجة ”إنها مباراة يا وضاح“، من ذا الذي قال ذلك في الصباح، لن أفعل ذلك حتى ولو تناثرت الريح أشلاء وتمزقت الستر، فهذه الرمال البيضاء السابحة في الفراغ ترحل وتحط على الأعالي، ها هو ذا الشبح القادم يختال على الطريق الممهد، يخيل إليَّ أنه قد انتهى إلى نهاية الشوط. ها هو ذا يتوقف[1] يدس السكين في الصخرة – ينزف الجرح – وهو يخلع حذاءه وجوربه العفن، كم من الروائح الغريبة نشمها في المعسكرات، رائحة الرمل، رائحة الظهيرة، رائحة الخيام، ورائحة المركبات المتعددة، ورائحة النار[2]. إنه – ذلك الشبح – يقف مرة أخرى ويتقدم، يحط الرحال على أعالي الجبل[3] ويضحك[4] بادئًا نبرة الترقب التي تعشعش في الخيام، ها هم يخرجون جميعا ويطلون، يدسون أيديهم في معاطفهم الثخينة[5]

(1) قلبه يتألم.

(2) رائحة الحريق. والحديد المنصهر.

(3) السيد الكبير.

(4) مدويًا.

(5) العسكرية.

منتظرين أن ينطق بحكمته، لكنه –فقط– يضحك، هو لا يضحك، إنني أراهم يعودون، ويندسون مرة أخرى داخل الخيام، ويتحلقون حول النار المشتعلة في الداخل، رائحة البنزين تشعرني بنوم خال من الأحلام، لكنني أتبادل كلمتين مع زميلي[1] الذي قال: مع من كنت تتحدث؟ كدت أقول إنني كنت أرقب الموقف، لو خيرت بين أي من المواقف[2] لاخترت شيئًا آخر: صيادًا أو ساحرًا وحيدًا في الصحراء، أو من هذا القبيل، جامع فراشات مثلًا، لكن هل سيتغير الأمر عندئذ[3]، الفجيعة المرة في وجودنا الدافئ اللزج، سألجأ إلى وسيلة أخرى فلربما تغير الأمر، سأجمع أمي وأبي وإخوتي: سالي سمراء صيام وعلي. سأرسل له دعوة ليحضر خصيصًا من شمال أفريقيا ليشهد هذا الاجتماع المثير، وسأجلس أنا باعتباري الراعي وصاحب الاقتراح على رأس المائدة، وسأستفتيهم في الأمر، سأطرح السؤال وأناقش الموضوع نقطة نقطة حتى نصل إلى صلب المسألة، سأرفع الجلسة إلى المساء، وأطرح السؤال من جديد، وسأحاول المراوغة حتى أصل إلى النتيجة.. لقد انتهينا، هكذا بدا لي الأمر عندما كنت أقف على ناصية الشارع وسألني أحدهم.. "قل لي من فضلك. إلى أين يتجه المرء؟.."، لم أسمع بقية سؤاله، وربما هو

---

(1) أثناء نوبة الرجوع.

(2) التي تضجر الحياة منها.

(3) أن تكون في صحراء محاصرًا من كل جانب.

لم يكمل الكلام، وقد بدا مترددًا وخائفًا – هذا العابر الذي سألني لأدله على الاتجاه الصحيح– أحببت أن يعيد هذه الجملة لكنه ابتسم وأدرك أنني غير مهتم، تركت زميلي جالسًا على صخرته، ودرت حول الجبل لتعقب الآثار على الضوء الخفيف الذي بدأت ذراته تتساقط على الرمال، وأضع خطًّا تحت صوتي.

(باب / ج)

(حوم طائر صغير وحط على شباك البيت، صرخت القطة وهي تقفز على السقف فسقطت على الدرجات علبة سردين صدئة، تحول الظل قليلًا للوراء، فيما ندت آهة في البيت الخالي، تدحرج طست الغسيل وبدا أن شيئًا ما قد وقع، كان الضجيج خارج البيت على أشده: العربات والمارة والباعة والأوراق الجافة السابحة في الطريق المترب، إلا أن أحدًا لم يكن هناك -في الداخل- الآن، كانت الستائر المهترئة -الخفيفة- مسدلة بلا حراك، توقف صبيان من الخارج وأخذا يكتبان كلامًا فاحشًا على السور القديم، سرعان ما تجرد كل منهما من سرواله وبال على الجدار وشتم الآخر ثم ركض في اتجاه مضاد، منذ تلك اللحظة وقد ذهبت الأم إلى السوق – بدا البيت يقف هناك منتظرًا، مجرد بيت من بيوت كثيرة متراصة تتقاطعها شوارع

متداخلة باهتة على طول القاهرة -من الداخل- وعرضها، هناك سحابة الضباب أيضًا، هناك بالطبع تلك البيوت الحالمة التي تغلقها الأشجار وتلفها الشوارع، لكن هذا شيء آخر، هنا في هذه البقعة من المدينة الكبيرة[1] المزدحمة، يبدو البيت في موقعه تمامًا، وسط الأصوات، ما أن تتركه خلفك، وتتجه شمالًا، حتى تغوص في مربع الانهيارات القائمة في الشمس).

(فصل 6)

الأب: يدي ترتعش وهي تمسك بالعلب الفارغة القائمة على الأرفف، كيف حدث هذا في غفلة من الزمن؟ مرت السنوات حتى فرغ من محتواه، الحشرات تخربش بين الأرفف لتحكي الحكاية بأصوات نفاذة، الصفائح الصدئة – بفعل الريح – تكمل أغنية الجوقة التي أسمعها جيدًا، ها أنذا أنتهي، لكن المقلق في الأمر أنني أشهد النهاية الباهتة، لكن المقلق... يا إلهي كان كل شيء لنا – والآن – نحن نتشبث بمؤخرة العربة، قدم في الفراغ، والأخرى هناك، إنها نهاية محزنة لبيت تعب في طلائه الأجداد، لم يكن الأمر متوقعًا؟ ولو أن الحيلة أسعفتني لخرجت عاريًا إلى الساحة،

(1) على مبعدة نحو خمسة عشر كيلومترًا عن القلعة في الجنوب الشرقي.

صارخًا بالنذير، ها هي تيارات الهواء تتقاذفه والمجاري تدب في أوصاله، يا أولاد الـ.. أين المعاول؟ أيها النجارون! أين السقالات؟ كانت المسرحية أن نتماسك بالأيدي حتى إذا ما انهزمنا نتماسك، والآن؟ عندما تحطم الحلم أصابت كل منا شرارة أطاحت بوعيه فأخذ يهتز على صخور الطريق، لم يبق إلا هو متشبثًا بمقعده من الصباح[1] وأنا أتابع، أتابع اللحظات منتظرًا الساعة التي ينقطع فيها عن المجيء إلى المقهى، (ذلك هو التاريخ أيها الـ..) لم تعد قدماي تقويان على حملي، لماذا يجلس المرء في هدوء آخر العمر- ليردد الحكايات والذكريات أو يقرأ الإعلانات في صحف الصباح!. المراكب توشك على الانزلاق إلى القاع، والسقالات تنهار على كتل البناء الممزقة، وها هو ذا يميل جانبا[2] الشبابيك تزقزق من شدة التعب، وقد بانت قوائمه التي تساقط عنها الملاط، شدوا الحبال على خصره النحيل، أوثقوه وارفعوه من جوانبه، الذين يمرون أمامي يرفعون رؤوسهم ويلقون على المتجر نظرة الوداع.

الخيالات أيضًا تمر[3]، إنهم يمضون ويتركونني خلف البنك أشتم رائحة البراميل القديمة، لا أسمع سوى خطو الحشرات

---

(1) إلى المساء.

(2) ربما ليرتاح.

(3) كالخيول الراكضة على النجيل.

التي تتحرك في علب فارغة، ها هى ذي الأميال تمتد أمامي وأنا أفكر – بجانب عقلي المنهك، أحاول ترتيب الأشياء، من أين يبدأ المرء في مثل هذه الحال؟ ما هي الزاوية المضبوطة التي يمكن أن أنظر منها للأمر بشكل صحيح؟ ياه إنها تقع من طولها بعد أن مشت طويلًا، أنهكها حملها فها هي ذي تتدحرج[1]، الرجل يضحك وهو محتم في الظل[2]، إنهم يحملونها، لا، إنه مجرد حلم رديء، لكن كيف يكون العالم وأنت جالس على مقعد مهتز؟ مرة أخرى: كيف يكون العالم وأنت جالس على مقعد مهتز؟ ربما هي تلك التجربة التي رغبت في أن أخوضها يومًا بعد أن تعبت، كنت أحلم بأن أكون عجوزًا مهملًا ووحيدًا أرتدي سترة قذرة يمشي في الأسواق متأبطًا تحت ذراعه كتابًا أو من هذا القبيل، لا يتحدث مع أحد، يجلس مع كلبه في بيت خال، بين الحشرات، البيت؟ مرة أخرى؟ أي خوف من سقوط الملاط؟ ما الذي يعنيه انكسار سقالة خشبية من السقف؟ أنظر، ها هو ذا القلق في عيون الصبية، سمراء تتخبط في بنطلونها المزركش بالورد وفي فمها بزازة، وضاح يمسك بمدفعه الخشبي يهدد الجميع، سالي ترتدي لباس نومها الأبيض الخفيف وهى تدق الكنبة بكعبها دقات منتظمة غير مبالية بصراخ أمها "أرجوك كفي عن هذا العبث، لا تلعبي

---

(1) كادت العربة تمر فوقها.

(2) عيناه زائغتان.

بأعصابي يا سالي، لماذا لا تذهبون للخارج، ابتعدوا"، لكنها لا تكف، تنظر بحدقتي عينيها الواسعتين إلى الفانوس، علي يمسك بالقطار الصفيح ويجرجره على الدرجات بينما صيام يحدق إلى السماء من النافذة الكبيرة الواسعة التي ليس هناك أحد وراءها هناك، عند الأفق، تعلو سحابات كالرمال مبشرة بقدوم الخماسين، يقول "هيا. هبي. انثري الرمال في العيون - ككل عام حتى لا يرى أحد" صيام، هذا أنا أعرفه، وها هم أخيرًا يرفعون أيديهم إلى وجوههم ويغمضون عيونهم، إنهم، ها هم، أمامي، وتلك الساعة اللعينة التي توقفت عند السابعة، فهل ستأتي الأوقات التي نهتز فيها، نعم، إنه يتساقط، ونحن سنمشي -في الخروج الكبير- نحمل الخيام إلى ما وراء الجبل، نمشي حتى نصل إلى نقطة التقاء السماء بالأرض حيث الجبل- نرى آثار الذين مضوا قبلنا تحت اللون الفاتح المختلط بأشعة الشمس المتوحشة ينصت للتراتيل[1] ونتجه للشمس في ظل العجل الذهبي، ونحن نتحرك، تحملنا مراكب الشمس، ومراكب القمر[2]، ها هي ذي الحشرات مرة أخرى تتكلم، الصفائح تغني[3] الأخاديد أمامي، لا يمكنني القفز فوق الأسوار قط، أليس عجيبًا أن أتذكر يوم الزفاف: كان

---

(1) الآتية من بهو الأعمدة.

(2) الأولى في الصباح، والثانية في المساء.

(3) أغنية النسمات المتسربة من الشقوق.

محاطًا باللمبات الكهربائية، مزينًا بالورود، تدق الدفوف داخله و... ترقص الفتيات، وهي، في لباسها الأبيض الطويل، يوم مُدت المائدة بين أرجائه، انطلقت الزغاريد بحماس، غنى المطربون حتى الفجر. قبلها كان قد لبس أنصع حلله، حككنا الجدران، وغسلنا الشبابيك بالماء والصابون، دهنا الأبواب بالأبيض، ومن كل الألوان، للنوم اللون الأحمر، للضيوف الأزرق الخفيف، وبقية الغرف الأصفر والأزرق، غيرنا المفاتيح، ونجَّدنا المراتب، تلقينا برقيات عليها ورود، وكنت –أنا– قد تسلمت الوثائق التي تخصه، كان قد آل لي نهائيًّا، بعد أن كان قد رحل، من يد إلى يد، ومن جيل إلى آخر.

(باب/ ح)

(أصبح وضع البيت صعبًا في الريح التي هبت فحلت ثلاث سقالات ضخمة ترتكز عليها القوائم المواجهة للنوافذ المفتوحة: للدوامات المحملة بالأوراق الجافة والخرق المحترقة، والصفائح القديمة، وكان واضحا أن السبب يكمن في عوامل الزمن المتوالية[1] لكن الشقوق أخذت تمتد بتحدٍ إلى القاع، تساقطت الرسوم– من على الواجهة – فتغيرت ملامح أبي زيد الهلالي واختفى السيف من

(1) أو الطبيعة.

يده، في بؤرة محاطة بأضلع الأحجار، ومال المحمل - من على ظهر الجمل - إلى أسفل، رقاب الخيول، كذلك، تلاشت، ولم يبق من الكلمات سوى «على - حج - إليه- وذنب - مبرور» واختفت: «لله من حج - البيت - الناس- سبيلا - مغفور - استطاع»، وطارت الخراف مع الهزات الأولى أما الهدايا فلم يعد لها أثر.

أخذت تجري في الردهة، محاولة الإمساك بأضلعه، لكن الباب الكبير كان قد انفتح فجأة - فقفزت للخارج تاركة الأصوات تتسرب من أضلعه، أصوات الأخشاب والأحجار والصفيح، جوقة لم تسمع من قبل، ترددت خلفها وهي تطلق صرختها، لكن أحدًا لم يكن هناك في الحديقة[1] فانتبهت إلى أن شعرها كان متناثرًا - خطته شعرات بيضاء - وكانت في جلبابها الممزق، لململت أطرافه وابتعدت في الركن القصي - خلف السور - محاولة أن ترخي الأنفاس، كانت تضع كفًّا على صدرها، والأخرى على رأسها وقد حدقت عيناها في اتجاهه - منتظرة الانهيار وصمتت الأصوات، فتراجعت وفي صدرها ضحكة - تكاد تنفلت وانتبهت إلى وضع كتفيها، فالتفتت إلى نفسها وأخذت تلملم الثوب حولها. تضع أصابعها على الثقوب، ورأت القطة تجلس على درجات السلم في هدوء، فتقدمت ببطء، ودخلت).

---

(1) سوى الشجرة الجافة وحبل الغسيل المرتخي.

(فصل 7)

علي: أمي تفتح الراديو في الردهة، تسمع نشرة الأحوال[1] من يعيدني لأيام الخيل والليل، أي صحراء موحشة أدق بها أوتادي، أبو زيد الهلالي سلامة، الحكايات الصغيرة في الردهة، أحمل حقيبتي على كتفي لأقطع بقية الطريق، أركل بقدمي الأحجار وأتوه في البراري، خرجت في الخروج الذي كان موعده فيما بين الشمس والقمر، أدس الخنجر في إبطي وأنا أترقب حدوث المفاجأة، المشي على الكورنيش في المغارب، تلك القوارب الراحلة إلى نهاية العالم (الغرز المتحركة، السابحة وعلى رأسها الجمر الملتهب) هل وصلت الرسالة؟ هل هناك من يرد؟ هل سالي هناك ما تزال؟ كم بقي من الوقت على رحيل القافلة، حاولت أن أتنشم التراب في الأرض الجديدة، سالم وخليل وأحمد يفرون أمام العاصفة، ينتقلون من

(1) في القاهرة تشرق الشمس اليوم في السادسة و4 دقائق. وتغرب في السادسة و4 دقائق، ويطلع القمر في التاسعة و24 دقيقة مساء ويختفي في الثامنة و10 دقائق صباحًا. في الإسكندرية تشرق بعد القاهرة بـ 6 دقائق وتغرب بعدها بـ 6 دقائق ويختفي القمر قبل القاهرة بـ 5 دقائق. في أسيوط تشرق مع القاهرة وتغرب بعدها بدقيقتين. ويختفي القمر بعد القاهرة بـ 4 دقائق. في مطروح تشرق بعد القاهرة بـ 16 دقيقة ويختفي القمر بعد القاهرة بـ 14 دقيقة. في الغردقة تشرق قبل القاهرة بـ 11 دقيقة وتغرب قبلها بـ 9 دقائق ويختفي القمر قبل القاهرة بـ 7 دقائق. في أسوان تشرق قبل القاهرة بـ 7 دقائق وتغرب قبلها بـ 5 دقائق ويختفي القمر مع القاهرة.

مكان لآخر يدسون أيديهم في غياب الفجر في غيمة الصحراء، في الكلام حول مائدة العشاء (حيث تفوح رائحة البيض في الطواجن) يلعبون الورق ويتسقطون الأخبار (من الرائح والغادي) يشربون الشاي ويحاولون أن يقصوا حكاياتهم، يرقصون من هول الليل، يتخيلون الأساطير القديمة، أبو زيد الهلالي مر من هنا بفرسه، (في الليل الطويل) كان ذاهبًا إلى تونس، وكان آتيًا من مصر، ماذا لو حطموا التماثيل وأحرقوا الزرع، الماعز تتحرك في المسافة ما بين الأرض والسماء، خلفها راعيها، في غيبوبة النهار تحت الليل من بعيد، يا لها من بهجة، أعد نقودي، أرتب حقائبي. أتزاور مع الذين ليس لديهم حكايات سوى "فتيات الكورنيش" أقفز على قمة القلعة وأجلس على قبة الجامع. هناك جُن أحدهم، لأنني أهوى حكايات الذين جنوا فإنني لا أنسى الاسم. سيكون الاختيار صعبًا على كل حال، لا بد أنها تزوجت الآن، لم يكن الأمر يعنيني في شيء، لم يكن خروجي إلا خروجًا، كان كما كان، وجدت الجميع يخرجون فخرجت، أحببت أن أكون في الخروج الكبير، يا لها من نشوة، كانت الأجساد تتزاحم، والأنفاس تتلاحق، والعيون تبرق، وكانت المشاعر على أقصاها، لقد فتح الباب فانطلقت الرعية، "ها هي ذي الحرية التي لم تكن خافية على أحد" همس أحدهم لي ورأيت الجميع يهمس (بعضهم كان يطرف برمش عينه) فتجمعنا وخرجنا ولم نفترق، كل الموجات انفتحت على خط واحد، عثرت

على قصاصة من خطاب، كانت تفيض غزلًا خائبًا، وكانت الأسماء واضحة كالشمس، وكانت يداي ترتعشان، والألم الذي هناك يتلاشى، في حجري سقطت موجة، سمعت أحدهم يقول للآخر: "أنت خارج نبض الجيل" ما الذي كان يقصده يا ترى؟ كانت الجدران تهتز، والسقالات ترتفع، وكدت أسقط مغمى عليَّ، إنها تهتز بالفعل، أمسك بجانب مقعدي، أشد عليه، أتخيل ما سوف يجري تحت الأنقاض، ليتني أستطيع أن أحمي رأسي، فلأسجل آخر الكلمات في الرسالة، وأضع خط النهاية، لكن، عيني، نعم، تزوغان.

أي مشاعر؟ في ثوان معدودة كان كل شيء قد انتهى. لم يستطع أحد أن ينقذ الموقف، في أي شيء أفكر الآن يا ترى، إن كل شيء داخلي، إني أراهم هناك الآن، يقفون في الطوابير، ينتظرون المد الخارجي على الدرجات، لكن أليس مضحكًا بالفعل أن أرى ما هو مستحيل، وأعيشه، وأتبوله، وأتناوله أحيانا مع إفطاري، إن الإغماءة قريبة، أي رائحة هذه، ومن هؤلاء الممددون حولي في ملابسهم البيضاء، يغطون في نومهم (كالرجال الجوف) أسمع صوتًا يقول: متى كانت رحلة القطار في المرة الأخيرة، (من الذي ينادي؟) أمد يدي إلى المساند، أتدحرج خارج الغرفة، صهد الصحراء مكومًا في ركن الشرفة (إنهم، سالم، وخليل، وأحمد يلعبون الورق ويشربون الشاي) ها أنذا أجلس بينهم على

الحشية، أستمع إلى نشرة الأخبار، أتصفح الأهرام (منذ ديسمبر الماضي) أشاركهم الحديث عن الملوخية وتاريخها وأنواعها، أذهب إلى حجرتي وأنتظر الآهة، الآهة نفسها، صوتها يتمدد في المسافة المتواصلة، الركض، لم أعد أرى ما بين عيني، أصابعي تختفي تحت الضوء الباهت، (المصابيح مطفأة بالفعل) لكن الأرض تتحرك، أليس هذا صوت الموتور الأخير، كل شيء يموج ويتحرك إلا قلبي، "ها هي ذي الأيام تضيع وتبقى حقائق الحياة" - كما قال أبي ذات مرة - سالم يضحك في الغرفة المجاورة، إنهم يذهبون إلى عملهم ويعودون ليلعبوا الكوتشينة، ويواصلون الأخبار، تغادرني الابتسامة وتلفتت إليَّ مودعة، أشعر بحركة أصابع قدميها على شفتي، أنا الذي خرجت لأنجز الحلم تحاصرني مياه (من كل جانب)[1] أستشعر مزيدًا من الضوضاء في قلبي، هل أخطو ببطء على الحصباء كما يقولون، أهتز معها بكتفي[2] وأعبر عن...، أنا الذي ما رقصت قط ولا أمسكت بخصر امرأة تتمايل، كم من الحيوانات مرت من هنا أمامي، المهم أنني رأيتها تمضي، لم تتوقف بسلتها عند بابي، أحلم بشد الحبل على الجبل الأخضر، أقفز بالكرة فترتد، ها هي ذي الصحراء تغيب في الليل. كالحلم أسمع المزمار آتيًا من وراء التلال قافزًا عبر الجبال يترامى في

(1) بالطبع.

(2) تلك الموسيقى.

الفضاء أمامي، وها هي ذي النجوم تشدو على الصوت، ليس أقل من أبي زيد الهلالي من "يراسلني" هكذا، الفرس القافزة من العربة المحملة تقطع الطريق بين آلاف الأميال، أكواخ متناثرة نرتاح بها، نشرب الشاي ونتبادل المعارف، نتحدث عن المستقبل، كم عربة قد اصطدمت بالصخور وتحطمت ومعها آمال، عند الحدود خلف الأسلاك الشائكة نقف، نتراص في يوم الحشر (الجميع يرتدون الملابس البيضاء) يحملون الحقائب على الرؤوس، يرفعون أيديهم: "نحن هنا فأنقذنا" عندما خرجت عربة من الطريق تاهت في الصحراء، وتوقفت في الرمال، خرجوا جميعًا وأخذوا يحدقون[1] وبدأ قتال، مات فيه الجميع (ما عدا ثلاثة تفرقوا في الصحراء وماتوا أيضًا بعد أن ركضوا طويلًا) ألم أقل، ها هي ذي النجوم في الأفق، يمتلئ كوبي بفتاتها اللامع، أشربه وأتمدد.

(باب/ خ)

(بدت الظلال متناثرة على الجانب الأيمن. وأخذت الشمس تنحسر شيئًا فشيئًا حتى استدارت ومالت، وكانت الشرفات والشبابيك على ما كانت عليه منذ الصباح، لم تزل الأتربة على الأفاريز، وكان هذا ما بقي من المجد المندثر، أما التمساح، على

(1) بعضهم في بعض.

الباب الخارجي، فقد اتسعت فوهة أنفه وتحطمت بقية أسنانه، وبقرت الطيور أعلاه، وسكنت في العشب الذي يمتلئ به جسده، والأصوات هناك ما تزال في الخارج، وقد أخذت القطة تقوم بحركتها المعتادة بين الحجرات، تحدق إلى نتيجة الحائط، تقفز على الكنبة، تداعب الستائر، تبتعد عن السقالات المائلة، تشتم رائحة الملاط المتساقط. (حيث كان الجميع في الخارج) لم يكن هناك سوى صوت قطرات الماء في حوض المطبخ المكتظ بآنية الطعام، تك. تك. وكل ذلك كان مشجعًا على أن يضيف جوًّا يمتلئ بالرهبة، يترقب الحادث الذي يلوح في الردهة، حيث تهب نسمة تلتطم بشراعة النافذة، تصطك وترتد، وتشخلل المقابض الحديدية، وتتناثر قطع صغيرة من الملاط، وتتسع الشقوق ما بين الأحجار والسقالات، وتتغير الألوان (ذلك اللون الترابي الخفيف، كان دائما هناك شيء ما يتحرك من مكانه).

(فصل 8)

الأم: ها أنذا أعود من الأسواق محملة بالخضراوات والصابون والسكر، أتدبر الأمر بدقة، أجلس على حافة الكنبة، وأتطلع إلى الأبواب، أقف مرة أخرى وأبدأ العمل، أتجول، فإلى أين يا ترى سوف نذهب، لم يكن قد بدا لي على هذا النحو من قبل، كنت

أفكر – في مرات سابقة – بأن شيئًا ما سوف يضطرنا للخضوع لهذا التحدي ، كنت أحس أن شيئًا ما فاجعًا سوف يحطم قلوبنا، كان صيام محقًّا عندما صرخ: "دعونا من حركة القلوب"، كنت أود أن أراهم مبتسمين، (من أجل هذا جئت بهم) لم أكن أتصور أن تصبح الأحوال على هذا النحو، تلك الحسابات التى أجريناها في الشباب، كنا نمسك بالورقة والقلم ونجلس لنكتب أفكارنا، ذلك الحذر الذي أحسسنا به في أعقاب الليالي، يوم كنت أصحو وأنا أغني، أنام وأنا أغني، أعمل في أرجاء البيت وأنا... تدفقت الأعاصير الباردة من جوانبه وأرى النذير مقبلًا بلا رحمة، لم يمهلنا لنسترد أنفاسنا وعاجلنا بأعمال الزمن قبل أن يغمض لنا طرف، كيف سيكون منامنا في ظل سقالات تنهار فجأة، أرى مأتمًا جماعيًّا، تصطف نعوشنا على الأيدي في طابور طويل. "علي" يصحبنا في مشيتنا الأخيرة. (يا لها من فاجعة أن تفكر على هذا النحو) يضعون السعف[1] – الذي سرعان ما سيجف مع طلوع الضوء ومع الصباح – على شواهدنا التي لن تكون أكثر من الصمت (من أين تأتي الأصوات؟) ها هي ذي السقالات الثلاث شاهدة على الانهيار، وهذه هى الحكاية وقد تساقطت كلماتها، وهم هناك في الخارج يستعدون للعودة، فمن يأتيني بالشجاعة لأبلغهم، كيف يكون عليه حاله وهو يرى المشهد الجديد، كيف سيفكر صيام الآتي من أجل راحة جسده،

(1) أخوه وزوجته وأبناؤهما.

عندما يلمحني أتحرك في أرجاء الردهة منتظرة أن تدق الساعة ولو لمرة واحدة أخيرة، يا سمراء ألا تكفين عن هذا وتشاركينا صمتنا؟، أيها الراحل هناك هل وصلتك أنباؤنا الأخيرة، لم لا تكف هذه العجوز[1] عن الغناء، تلك الأصوات المنبعثة من هناك تعجل بانهياري، من منهم يا ترى هو الذي قال يوم عيد الفطر "نحن مقبلون على هياج جماعي لا ينقذنا بعده أحد"، لقد أرادوا بنا ما نحن فيه وها هم ينتصرون (خذ منا حاجتنا وأعطنا حاجتك) هل ستجدي الصلاة في اصفرار الشمس، تحت سقف كهذا، أي قوة تستطيع أن تهبنا القدرة على التطلع إلى عقارب الزمن التي توقفت دون أن يكون لنا حول[2] في حركتها الأبدية، إن ما حدث كان بداية جديدة لموجة من الخروج في التوهان الذي توعدتنا به، هذا هو نذرنا الذي علقنا به رقابنا على مداخل أبواب المدينة، ها أنذا أسترد أنفاسي على رائحة التقلية وأنا أرى البداية وعلى كاهلي يقع عبء الدعوة[3] أمد يدي فلا أجد بها القوة عل بسط كفها المرتعش، أقف لا أقوى على مد جسدي، أرى ثديي وقد جفًّا، الدماء تسري في ساقي وأنا أمشي بها في عظامي فيا لهول العودة إلى الدماء بعد سن اليأس، النوافذ قد أغلقت[4] وسيتعذر فتحها مرة أخرى،

(1) أم كلثوم.

(2) أو طول كما يقولون.

(3) يجب أن نتماسك جميعًا.

(4) نتيجة للانهيار الأول.

ها هى الستائر صامتة[1] الدواليب صامتة، ولم يعد مقبولًا أن أنتظر أكثر من هذا، هل أستطيع أن أرتدي ملابس الخروج وأذهب لإبلاغه بأي شيء، أم...؟ ربما عند انتهاء النهار يعود كل شيء إلى حاله، بالفعل هذه هي السقالات ترتفع، تعود إل أماكنها، النوافذ تعود مرة أخرى، تفتح وتقفل، وها هي الأضواء، الستائر تتمايل مع النسمات، ألم يقل وضاح.. "لم يكن ذلك غريبًا. كل ما حدث من قبل شاهدناه في لحظات من أعمارنا، كل في وقت آخر"، لا.، ليس ما يجري أمام عيني حقيقة، لا، إنني لا أصدق عودة الكلمات، ولا الرسوم، أبوزيد الهلالي يعود إلى الواجهة، آثار الأجداد القدامى في أماكنها[2] سوف أنقل الآن فراشي تحت ظل الشجرة وأستلقي في الهواء، لا، ليس ذلك حقيقة، حتى الشجرة (التي جفت منذ ولادة سمراء) تعود للاخضرار، المياه تتدفق في الحديقة (عاد إلينا سلمان الجنايني بعدته وأخذ يعمل كعادته صباح كل جمعة) هذه هي النباتات تنتعش، تعود خضرتها لتصبغ البيت باللون الذي لم نعد نراه. لقد عاد الطلاء، فلأحدق جيدًا فربما شاهدت الساعة الخشبية تعود للعمل مرة أخرى تك. تك. تك. مرة أخرى لم يكن – إذن – هناك خطأ إلا فيما كان هناك، إنه داء الإهمال الذي صور لي كل ذلك، لقد نسيت "التاريخ" وكان

---

(1) لا ريح بعد اليوم.

(2) من الزمن ومن التاريخ.

عليَّ أن أردده، عليَّ أن أحكي لهم الحكاية من أولها، أردد لهم كل كلمة مرات، عليَّ أن أعود بهم إلى كل الأوقات، (وأعمل جهدي في إبراز الخيال الذي صبغ الرواية)، لقد تخليت عن دوري وعليَّ أن أسترجعه، يا لصوت هذه المرأة، إنها تقف في المقدمة دائما، فعليَّ –إذن– أن أراجع دفتر الحسابات، ما الذي جعلني أكف عن المضي قدمًا في الطريق الآخر، نعم إنني اخترت (لكن بعد أن كان كل شيء قد حدث بالفعل) دون أن أشعر في أي لحظة كان قد مضى الزمن، لقد انتزعت من عالم لأدخل في آخر، بموافقتي الكاملة، قدماي تحركتا بهدوء على العتبة، ولا بد أنني شعرت بما يشعر به الآخرون، إستسلمت في زمن مبكر على أضواء الشموع المغروسة في صواني الحناء، على دقات طبول الكودية وتصفيق الفتيات[3]، ضحكت وبكيت، قمت في الصباح وسهرت في الليل، زرت أقاربي وزاروني، تبادلت الهدايا في ذلك الزمن[4]، نعم لقد رأيتهم في مطلع ذلك النهار، حتى ابتعدوا هناك، حشد هائل من الخارجين فرحًا، لكنهم لم يعودوا، إننا وحدنا من ينتظر، ولم تكن عائلتنا أقل العائلات، فقد قام «علي» بالواجب، لقد مثّل العائلة فكان لنا واحد في الحشد، (هل وصلت الرسالة إذن؟) لكنني أريد أن أنتهي، أضع الملح في الطعام. هل سيمكنني أن أغني على هذه الحال، هل

(3) وهن يرتدين الخلاخيل.

(4) قبل الخروج الكبير.

سيعودون الآن يا ترى (قلبي يحدثني بأشياء عن سمراء) لقد تغير لونها هي الأخرى، ولم أكن بالمرة أنتظر لها هذا المصير، لقد حدثتني نفسي مرارًا بأننا سنجد أنفسنا مضطرين لذلك، كل في فراشه (أو على مقعده) لم يعد صيام يطيق الجلوس على الكنبة عندما يكون هناك – على طرفها الآخر شخص آخر – وهم ينظرون إليَّ دائمًا، أجدهم ينظرون إليَّ فأعود إلى مكاني من هذا العالم، أتحدث مع الأواني، أسمع صوت الأطباق، عندما يأتي أول القادمين سأخرج إلى نزهة، سأركب قطارًا وأسافر، لكن، هل ستكون حدة المفاجأة عند عودتي (جالسة تنتظرني على درجات البيت) أقل ما هي عليه الآن؟ قصيرة القامة، قصيرة العمر، إنني لا أصدق، كيف حدث أنني رأيت كل ذلك، لكن مشاعري لم تخطئ، ها أنذا أرى بداية جديدة، دورة أخرى من الحلقات، هل سأظل واقفة هكذا في ظل السقالات؟ أشم رائحة تساقط الملاط، وددت لو ناديت بالصوت: أنتم يا من هناك؟ ولكن من الأفضل أن أرتب المسألة حتى لا تأتي المفاجأة بنتائج وخيمة، كيف يمكن شرح الأمر، ماذا سأقول له– عندما يجد نفسه – وهو المتعب خلف البنك –أمام هذا الشيء؟ هل أردد له اللحن المشروخ[1] هل سأستطيع الإجابة على تلك الأسئلة، هل أمد يدي إل قميصه، أسأستطيع تقديم العون له عندما يرتدي جلبابه، أين الطاقية، أين ذهبت

(1) الذي يتماشى مع الطالع.

فردة الخف؟ كل تلك الأسئلة، لكن، يجب أن أجلس، لماذا أنا واقفة هكذا، من المناسب أن ألملم قميصي فوق جسدي وأغير تلك الأفكار، أجلس وأستمتع برشفات الشاي بالطريقة التي ورثتها عن أمي، لقد مضى وقت طويل لم أفعل خلاله شيئًا بخصوص الطعام)، لن يكون هناك طعام اليوم، سنذهب ونأكل في أحد المطاعم[1] مهما كلفنا الأمر، ها هي ذي بداية الآلام تعاودني ولن يكون بإمكاني الحركة من السرير، لن أتمكن من الركض عندما تحل الكارثة، لن أستطيع اللحاق بهم، وربما تعذر عليهم حملي في هذه السن، لا بد أنهم[2] سيجدون المبررات لتركي تحت الأنقاض، سيشعرون براحة وهم يتفرقون كل إلى... كيف ستتصور سمراء الأمر، ماذا سيكون رأي علي، ما الذي سنفعله – نحن جميعًا– بعد كل هذه الحكايات، أليس من الأفضل ألا أقلق من أجل سالي، وحدهم سيجدون طريقهم إلى نهاية العالم، المدافع التي هناك ستلقي بقذائفها، إحدى وعشرين طلقة لكل صوت، أربعًا وعشرين قذيفة بعدد ساعات اليوم، سبع نجوم بعدد المقامات والأصوات، (ليس هناك أكثر من الزمن المحدد لنا) في طيات الثوب كانت أمي ترشق إبرتها، حدثتني– وهي تخيط الزرار المقطوع– عن العالم الآخر (أنتم يا من هناك) كانت تحدثهم مع كل صلاة، لم تنسهم لحظة،

(1) كما يفعل الضيوف.

(2) واحدة وواحدة.

كانوا هناك دائمًا، مع الفكة في سيالة جيبها العميق، كنت أراها تقول في الحمام "دعوني أتجرد من سراويلي"، ثم تضحك، فقد تعبت عيناها -هي الأخرى- في الأيام الأخيرة، ها أنذا أرث قلة النظر وآلام الجنب الأيسر، وها أنذا حملت ذلك إلى سمراء، ومن يعرف، فقط بعد وقت، ربما شعرت به سالي أيضًا، ربما هناك في الصندوق بعض الأحجبة، كيف اختفت الرقية من الصرة، ما تزال رائحة البخور والعطور في قاع الصندوق، كما لم يزل اسم صانعه محفورًا على واجهته، هل هذا هو الصوت، إنها القطة أم ماذا؟ لعلها تفكر في الفرار - هي الأخرى، فلن يفكر أحد منا بعد الآن في شيء آخر، إنها كرة الخيط هي تلك التي جرت بين قدمي، ليس لديَّ القدرة على لملمة الخيوط، ذراعي تؤلمني، ها هو ذا الألم، لن أستطيع، ها أنذا أرتاح قبل أن أجفف عرقي بالمنديل.

(باب/د)

(انكسرت الظلال من الشرق، وبدت الأشعة المستلقية على جانب واحد من أعلى أشبه بالعمامة الصفراء، وحوم طائر وحيد فوق بقايا الديك الحجري الممزق، حيث كانت قطعة من الصفيح[1] ما تزال تداعب الهواء، ثم توقف على حافة السياج،

(1) من بقايا المروحة.

أخذ ينظر إلى الأسفل فوق رؤوس المارة، وعربات اليد، وعربات الكارو، وحاملي الخبز الراكضين على عجلاتهم، أما الغزلان، الغزلان التي كانت مرسومة على جانبيه الخارجيين بالأزرق والبني[1] فقد لطختها إعلانات المرشحين للانتخابات من جهة، وإعلان السينما المجاورة، عن ثلاثة أفلام في عرض واحد[2] من الجهة الأخرى، حتى لم يعد هناك سوى بعض الرقاب، والأذان والأقدام المحفورة، والحشائش، غير أن الطائر الصغير كان يتلفت، أشبه بمن يبحث عن شيء ما، (ربما منفذ إلى الداخل) وأخذ يقفز ويحوم حول ماسورة المجاري المغطاة بعلبة من الصفيح الصدئ، ثم استدار إلى أعلى وإلى أسفل، توقف على غصن الشجرة الجافة، ثم استدار وهبط إلى حبل الغسيل، حيث كان هناك كيس من البلاستيك أخذ يرفرف مع حركة الطائر فوق الحبل، تلفت على صوت الباب الخارجي وهو يفتح (خرجت ووضعت صفيحة الزبالة على الدرج) ثم يقفل.

اقترب من هناك وتوقف على حافة الصفيحة، أخذ ينقر وينثر الزبالة، ويقف على حافتها حتى اقتربت القطة من الصفيحة عندئذ طار).

---

(1) منذ زمن.

(2) بروس لي في بطل الكاراتيه، فريد شوقي في باب الحديد، جون واين في بطل من الغرب.

(فصل / 9)

سمراء: أمد يدي إلى القماش اللين فأشعر بالدوخة، حدثني (منذ لحظات) عن الطريقة الجديدة التي ينوي أن يمارسها معي، أكد كثيرًا جدًّا على أنها شيء مختلف، ربما يعيد الحياة إلى نفوسنا المتعبة، ربما يعوضنا عن شيء ما، قالت صاحبتي وسامة (تلك التي لا أراها إلا نادرًا): إنها دائمًا تمنت لو تخلصت من إصراره[1] على لون ملابسها الداخلية، (إنه دائمًا يحبها بنفسجية) لم تعد تحتمل (كما أشعر أنا أيضًا) رغبة الآخر في شيء آخر، لقد أنهكنا وانتهى الأمر، فليحدث ما يحدث، ماذا تبقى هناك في حقيبتي يمكن أن يكون بديلًا للتسلية، سأبعث برسالة لكل ضريح، وأنتظر الجواب، وأنا في سرير "عمر"، لقد أعطاني أمانًا.

لقد قال: ستعملين معي يا سوسو– وأزاح خصلة من شعره سقطت على عينيه– طوال العمر، لن نتخلى عن بعضنا أبدًا، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ هكذا، لكنني لا أنسى غضبه يوم جاءت عجوز تطلب عملًا: "هل تظن أنه ملجأ، كيف تسنى لها أن تتجرأ وتطلب عملًا في محل كهذا؟"، وأخذ بعدها يفعل بقوة، وقال إنني ممتعة بالفعل (وكنت أتمنى أن يستمر فترة أطول) ها هي سيارة فارهة توقفت في محاذاة الطوار، أنظر إلى يدي صاحبتها وهما تمسكان بالمقود،

---

(1) زوجها.

يا لها من شراسة تلك التي تقفز من بين عينيها، كيف يمكن أن يغير المرء مصيره في مثل هذه الحال، وددت لو مشيت على حافة الكورنيش[1] لو اعتصرت في كفي الورود، لو ألقيت بمنديلي المبلل بالدماء في ماء النيل (من فوق كوبري الجامعة) الفتيات يملأن الجرار على الشاطئ الآخر، أنظر إليهن. إنهن يجلسن في جوار الماء، وهكذا يتخيلن أشياء كثيرة، كما أحلامه بالثروة الطائلة، إنني نادمة حقًّا على رفض الذهاب معه إلى "الجاكيز" سأتعلم الرقص وأذهب معه، فمن يعرف، ربما توصلت إلى تلك اللحظة (حيث تشعر بالدوخة وبالخدر) لقد حاولت بالفعل، حاولت التجاوب معه مرات كثيرة ولكن، نعم، خذلت، خذلت نفسي أو أنني خذلت بطريقة ما، دائما، هكذا، كيف إذن يكون الخروج إلى عالم النسيان هذا، كيف يمكن التصرف في حالة من هذه الحالات، ها هي ذي الموسيقى تدق في أذني وأنا أتابع النظر إلى الخارج، ها هم جميعًا يأتون وفي عيونهم بريق: يرفعون القمصان إلى صدورهم، يمدون أرجلهم مع السراويل، يتشككون في الأمر (وهم يزمون شفاههم)، بعضهم يتحدث الإنجليزية، وبعضهم يتحدث الفرنسية، ولكن هناك أيضًا آخرين لا يتحدثون هذه اللغات، هناك عرب يلبسون الجلاليب البيضاء والكوفية والعقال، ونسوة يلبسن

(1) على الشاطئ البعيد من هنا بالطبع.

الأثواب السوداء الطويلة (في يد كل منهن ثلاثة كيلوجرامات من الذهب)، يتحدثن بسرعة وفي لغط، أرفع يدي وأشعل سيجارة "مارلبورو" وأحاول أن أتجرع الدخان، لكنني لا أقوى، تلك كانت حكاية: كانت هي أول مرة وضعت فيها سيجارة داخل فمي، ليلة عرسي الأول، كان مصرًّا على أن أشاركه سيجارة الحشيش، قال إنها ليلتنا وعلينا أن نغيب فيها عن وعينا، وشعرت بدوار ولم أستمتع بالمرة الأولى، في الصباح. كان الألم عل أشده، وكان هو ضاحكًا، كنا نلعب الكوتشينة أنا وزوجي الثاني مساءً، وكنت أحاول أن أكون طبيعية معه، لكنني لم أنس الأول، والآن، أحاول أن أنسى الثاني. فهل يا ترى سأحاول أن أتناسى الثالث في المرة الرابعة؟ لكل جسد طريقته ولعقلي طرق عدة[1] عندما أتمدد تحته تهب فرحة لا تدوم، أشعر كل مرة بمحاولة الاغتصاب التي تمت في زمن سابق، أنحشر في العربات الراكضة، أحاول أن أنزلق مندفعة من اليد التى تمسك بمعصمي، أخرج من فستاني[2] ألقي بملابسي الداخلية في الهواء، يا لها من رائحة، كيف، كيف كرهت العرق، إنه شيء غريب بالفعل، شيء غريب بالفعل، وها هما عينان جميلتان كعيني سالي السوداوين. ليتني، لا، "عيونك

(1) لا يعمل إلا بها.

(2) ذو الزهور البريئة.

فاتنة“ تضحك، تدخل رأسها في معطفها وتخفي وجهها الناعم، تدفع الثمن دون مناقشة، لم تنتبه لحقيقة الأمر، كانت أسيرة، هل وجدت نوعًا من الإنصاف أم ماذا؟ من لا يقول لمثلها أنت – لكن لماذا يشغلني الأمر، من الأفضل أن أذهب إلى الطبيب، قال عمرو: ”من الطبيعي أن يتردد الواحد في هذ الزمن مرتين –في الشهر– على طبيب نفساني»، سأبكي في الغرفة المغلقة، على السرير، تحت الأضواء الخافتة، سأدس رأسي في الغطاء الأبيض، سأستمع لكلمات الطبيب، وأتجرع الحبوب كلها دفعة واحدة. أريده أن ينتهي[1] ذلك الضغط الذي يحاول أن يفتك بي، أقلب «الأهرام»، وأقرأ حظي: «تبدو الحالة التي كانت صعبة في طريقها للانفراج» ما هي أخبار الراقصة والممثل، هل تزوجته بالفعل أم لا؟ إنها تؤكد وهو ينفي، قال عمرو: «ربما وعدها في السرير ثم تراجع عندما وضع قدميه على السجادة»، لا أعرف، لماذا يريد هؤلاء الطلبة أن يتظاهروا، فليتظاهروا، فليحطموا كل شيء ويتظاهروا. ليتني أستطيع الاندساس بينهم، لكن، أليس ممتعًا أن يشتم المرء في الطريق، وددت لو فعلت شيئًا كهذا، أن أشتم كل من أريد أن أشتم، لكن الأمر سيكون صعبًا عند نقطة معينة، فمن أختار؟ من

(1) الآن.

هو أولى منا بالغضب في مثل هذه الحال، هل سيمكنني الرجوع إلى البيت، الرجوع مرة أخرى؟ أمي تصرخ في الليل في اتجاه الشيء القادم، إنها تستشعر الهلاك، وكم تمنيت أن أصحبها معي في نزهة، أن أدعها تحكي لي وأحكي لها، منذ متى لم أجلس معها.. سأذهب وأدعو سالي لعشرة كوتشينة.. سأدعها تهزمني وأنا أراقبها، لن أدعها تفلت من بين يدي، ستكون في حوذتي، مسكينة، سالي، لم تقدر الموقف واندفعت في الطرقات المعوجة، إنها تتسلق الصخور ومن تحتها البحر الهادر، من يمسك بطرف الخيط من الناحية الأخرى، إنها تندفع فيما لا نفع فيه، وضاح ضحك في وجهها عندما عرضت طرفًا من مشروعها، كان قاسيًا، وضاح.. لم يمهلها لتنهي حديثها فقالت: إنها فاجعة، لا أحد مع أحد في هذا البيت المنحط. لقد اتفقنا على ذلك. أعني: حدث هذا دون ترتيب. مع الزمن الذي وحدنا. كل يتناول طعامه في وقت. ها هي ذي الأضواء تنذر بالانطفاء، وما زالت الطرقات مكتظة بالمارة. أرى وجوههم في الفاترينة، بعضهم مستدير الوجه، بعضهم أسمر اللون، بعضهم يحدق باندهاش، وبعضهم يراقب، كم مرة وجدتني هناك في قبضة عينين تتابعان تاريخي، قصة حياتي المتخيلة حسب الراحة، أرى الأضواء تتراقص لتتفجر الألوان، ليتها تشتعل فجأة ليتغير العالم، حتى لو ذهبت ضحية لذلك، لكن يا ترى كيف حالها في الردهة. أصبح من المعتاد أن نذهب جميعًا

ونتركها هناك، يوم العطلة يزعجها لأنه يغير عادتها، لقد رفضت عروضًا كثيرة للاشتراك في شيء ما، قالت إنها لا تجد نفسها طبيعية.. «اتركوني في حالي. لقد تعودت الكلام مع الشبابيك» أصبح الوضع صعبًا؟ أخمن بذلك الشيء الذي يحدث، لم يكن سقوط الملاط سهلًا... لا يهم، ياه، أشعر بالتعب، وددت لو تمددت على وجه الماء، ليس هناك مكان مريح أتمدد به في هذا الضيق، سألقي بالفساتين الملونة على الأرض؟ وأنام فوقها، (وهي تغني لي أغنية تتردد من بعيد فما الذي هناك دائمًا يخيفنا، وددت لو تخلصت من أذني، نعم، لقد كانت نكتة طريفة عن القطة والحلاق.. فكيف سينتهي الأمر عندئذ، ها هي ذي الأصوات تختفي. والإغماءة هنا: على جانب الفاترينة تطل برأسها وتحدق في وجهي، رفعت ذيل فستاني ونظرت.

(باب/ ذ)

(من الخارج تدلت قشرة ضخمة من الملاط بعرض مترين تقريبًا، كان داخلها عش طائر وبعض الخرق المتشابكة، ومن خلال السياج، في جوار الباب الحديدي مباشرة، كانت الأحجار قد تباعدت في حجم يكفي الكلاب الضالة للدخول، وتناثرت هنا وهناك خارج الحوش وداخله قطع من الحجارة والطوب

والعلب الكرتونية الممزقة الفارغة.

في الداخل كانت الأشكال قد ارتسمت على الجدران: حيوانات. طيور، وجوه، أرجل، جبال، وديان، بحيرات ومراكب، خيول ومعارك، طيور، وجوه، حيوانات - أرجل، خيول ومعارك، بحيرات ومراكب، ووديان وسهول وسهول وخيول وبحيرات ومعارك ووديان وحيوانات ومراكب وأمواج وسحب وشموس وأشكال بلا معنى.

كل ذلك كان على الجدران، وكان معلقًا على السقف بين السلاسل المدلاة بالفوانيس والثريات، الفوانيس التي كان السماج يغطيها، والثريات القديمة التي لم يبق منها إلا الهياكل والأذرع المفتوحة الأكف).

(فصل 10)

صيام: كلهم يتوجهون إليَّ بأفكار مسبقة، لا أحد يضعني في المكان الذي أود أن أكون فيه، هو ذا صوت الصفارة يدوي من خلف السور، الجميع[1] ذاهبون لمشاهدة المباراة، ها أنذا أنحشر بينهم، أندس بين الذين لا صفة لهم وليس لهم مقاعد بجوار الأساتذة، رائحة النجيل الأخضر في ظل الظهيرة تدفعني

(1) طلبة الكلية.

للتمادي.. أين هي "إكرام" ما يزال الطلبة يتناقشون في السياسة، حتى وهم يتفرجون على كرة القدم أو يتحدثون بالغزل -مع الفتيات- يتكلمون في الأمور السياسية، يومها ذهبت إلى بيت "صبري" وأطلعني على تلك الأوراق... ها هم يتطلعون إلى الأفق، خلف اللعب، إنهم ينظرون تجاهنا، هاهم يلوحون لنا، هاهم يصطفون ويتقدمون ليواجهوا الأعداء، إنهم يستعدون للانتصار، لا بد أن نحصل على "الكأس" ونشرب فيه البيرة. واحدًا وراء الآخر حتى الثمالة، تبدأ المباراة عادة ويتحرك الحكم متابعًا الكرة بإخلاص، لكن لا يجب أن يهمنا وجود الحكم، وددت لو ذهبت وقلت لكل واحد من لاعبينا: يا لاعبًا لا تهتم بهذا الحكم واقفز على الكرة حتى تضج الفتيات بالصراخ، لون النجيل الأخضر يغرق الكون وينعكس على مرآة البحيرة، ها هي ذي الطيور تتماوج فوق أشجار حديقة الحيوان العالية، لأذهب وأرى الأسد، لكن ها هم يبدأون، يقذفون الكرة، إنه، انظر، هذا هو فريقنا. إنهم يتقدمون بقوة[1] ينفذون الخطة، مسكين هذا المدرب العجوز، نحر صوته، وأتعب رقبته وهو يمثل ويشرح في الأيام السابقة، لا بد أنها مهنة قاسية[2] مع فريق كهذا. كما يقول الجميع عند هذه النقطة. لكن. من لي بـ.. الحلم الذي عرفت كثيرين يتحدثون عنه، في أوقات

---

(1) تجاه الهدف.

(2) كالحب.

العصاري، بعد أن نجلس في الحدائق (لنأخذ حصتنا من الكسل) على المقاعد الحجرية ونحن نستذكر دروسنا في الهواء الطلق، قبل امتحانات نهاية السنة، في ذلك الحر القائظ، هكذا دائما: القائظ تطلع من حلقي (كخزين أيام الصحراء)، انتبهي يا إكرام انظري[1]، إنه جول، الجول الأول لفريقنا، اصرخوا معي إننا قد انتصرنا، حققنا النصر على الأعداء (جميع الأعداء) وسنسحقهم، سينهزمون، وسنفرح نحن، سوف نذهب إلى بيوتنا فرحين للغاية، أليس كذلك؟ هناك في الردهات التي تدق بها الساعات القديمة، سنشرب الكوكاكولا، أو السفن آب، أو السبورت كولا، أو حتى الشربات ونحن نستمع إلى نشرة الأخبار، ننتظر أخبار لاعبينا المنتصرين، ونتحدث في الردهة تحت الساعة الخشبية، سأقول لأمي كل التفاصيل، كل ما رأيته على الوجوه، كيف كانت الأيدي تعمل، والقلوب تتحرك، إنها تنظر إليَّ محدقة (هل تسمعين) نعم، إن أمي مهتمة بالموضوع، لكن، ربما، بطريقة مختلفة، بالمقلوب، كما تلك الآنية بعد الغسيل، عندما تضعها[2] على الأرفف، إنه يتقدم. انظري يا إكرام[3] (ما هذا؟) أظن أنها تتعمد ذلك، لماذا مثلًا أرتني ثديها في الصباح؟ هل كل ما يحدث يحدث

---

(1) يرتفع الهتاف.

(2) هي نفسها.

(3) إنها تنظر وتنط حتى رأيت ملابسها الداخلية.

هكذا، لماذا لم أر ملابس أمي الداخلية مرة واحدة في حياتي، ورأيت كل الزميلات بعضهن أكثر من مرة، لا، إنه يتراجع، ترتفع حشرجات الحسرة.. لكن لم يشجع –اليوم بالذات– هذا العدد الضخم نادينا.. من دفع لهم، ها هو الشجار قد بدأ –في نفس الوقت مع حشرجات الحسرة– وهذا لا يتم مصادفة أيضًا، آه، إنهم ينطلقون، يزحفون، ها هو.. الثاني... لقد جاء الثاني، لم يعد لهم أمل إذن، لقد أصيبوا باليأس، لقد أصبحوا يائسين، لا بد أن يكونوا كذلك، إنهم أصيبوا بعقدة، ها هي ذي أرجلهم ترتجف، وأيديهم تلوح في الهواء، إنهم ينكسرون إلى الأبد، وتنطلق صفارة الختام، فنزحف على الملعب، نحتضن المايسترو، نرفعه عاليًا فوق الرقاب، ونلوح بأعلامنا، أصبح لنا بطل الآن، سأضع صورته بجوار النتيجة القديمة في الردهة، أمي تنظر إليه، وأبي أيضًا.

ويقول: "كانت في نفس المكان صورة لسعد[1]"، سمراء تقول إن شكله ثقيل الظل، سالي ترى في عينيه تعبيرًا ما، ذلك البريق، أنام ملء جفوني كما يقولون، أحتضن الوسادة أحلم بهن جميعا، ها هي ذي الأقدام والأرجل والأذرع والأفخاذ والشفاه، اللهفة التي تحيطني وتدفعني إلى الغرق. هناك بعيدًا، مع الكرة التي تتدحرج على النجيل الأخضر، تقفز العصافير أمامها.. كما كانت تقفز فوق شجرتنا، بطريقة مبالغ فيها، آه، تلك العصافير، عصافيرنا

(1) زغلول.

العصبية الضامرة، لماذا تنادي أمي بهذا الصوت المشروخ، إنها ترتجف من سقوط الملاط. قلت لها إنني تعمدت دراسة الآثار القديمة حتى أجد الحلول، إنني سآتي بالجردل، والفرشاة، صباح يوم العطلة القادم وأعيد طلاء البيت، لماذا نظرت إليَّ هكذا، ما الذي سيتغير لو أن الرسوم لم تعد إلى مكانها، لأخرج إذن إلى الحديقة، أجلس بعيدًا تحت الشجرة، أرقب العشاق أو ألعب بأصابعي في النجيل، الطائرة المحلقة تضج بالأصوات، مع صوت آلة المدق هناك على الكورنيش حيث يدقون الأساسات لبناء أطول عمارة في القاهرة، ذلك النفير إنهم قادمون في الطائرة، ونحن نعد لهم البيت، أولئك الذين سيخلصوننا من كل هذا، من جلستي على الحشائش، أولئك الرجال ذوو العيون الزرق (يحملون معهم فتيات بضات) هناك على شاطئ النيل، حيث ترتفع الإعلانات الملونة في السماء وترتفع أصوات الضجيج، إنها تدق وتدق، فأين أهرب إذن، ها هي الحركة الأخيرة تقول إن الصوت سيتوقف، لكنه يستمر، إنها إكرام، نعم، هناك، لأمشي خلفها وأعاكسها، أقول لها كلامًا عن احمرار كعبيها، عن دائرتيها، إذا استجابت تماديت ثم آخذها إلى هناك، أولا إلى الشاطئ نتأمل القوارب في النيل أو ننظر إلى الجانب الآخر ونحن متماسكين بيدينا المبللتين، نود لو نقترب، ونختلس من الحياة قبلة، من وراء ظهر المخبر الذي يقف هناك خلف العمود خصيصًا لهذه الأمور، ونمشي لكن النوم يغالبني،

فهل أستطيع أن أجابه عينيها وأنا أمضغ الساندويتش، أو وأنا أخلع سروالي وأعلقه على الجدار، وأنا أرتدي بيجامتي النظيفة، ليس لنا في النهاية سوى الفراش، عندما يضع الواحد رأسه على الوسادة ويشد الغطاء على جسده المتعب، ويحلم قبل أن يستغرق في الخفاء، هكذا قرأت الكلمات وسمعتها، تنسج لي راحة من الليل الذي ينهي النهار.

(باب / ر / 1)

(نظر الساعي المتعب إلى البيت وتقدم ناحيته مترددًا، كان الرقم قد سقط منذ فترة، ولم يكن هناك من إجابة وهو ينادي، فذهب وسأل في البيت الآخر، لم تكن الرسالة لأحد هنا.. ولم يحدث شيء خاطئ يعيد الساعي لينادي على من هناك، فقد توصل إلى العنوان الصحيح، ولم يكن هذا إلا العنوان الخطأ، على الرغم من أن هناك من كان يود أن تصل رسالته وهناك كان من ينتظرها، خلف الباب وفي الردهة، حيث مضى وقت وهي تحدق إلى الملاط المتساقط، وهي تنتظر أن تنهار السقالات العريضة، إنها تترقب الهزات الأولى، وتستعد بالهرب إلى الحديقة، وفكرت أن تملأ الحقائب بالأشياء التي تحتاجها، حتي تكون على استعداد بالهرب، هناك.. ربما ساعدتها على الحياة،

وقررت[1] أن تقف بالتاريخ عند هذا الحد، أن تكف عن تعذيب نفسها بأن تتخلص من البيت، لن تستجيب إلى السؤال.. إلى أين إذن سنذهب؟

لكن، لا الزمن ولا أي شيء أسعفها، على الرغم من أنها كانت تعشق النظر إلى تلك الساعة، فمال الجدار بالفعل، هذه المرة بدت الشروخ على أهبة الاستعداد للظهور بصوتها، ولم يكن قد انقضى أكثر من ساعات على بداية الصباح، هي إذن بعد الظهيرة من نفس اليوم الذي بدا لسبب أو آخر حاسمًا وكان لا بد من أن يتذكر الجميع تاريخه السابق:

لقد بناه الجد الأول[2] زمن كانوا يبنون البيوت ومن حولها حدائق، ونوافير، وكانوا يجعلون من الردهة مكانًا فسيحًا، يعلقون على جدرانها صور رجال العائلة، وتلك الساعات الخشبية الكبيرة، التي يدق بندولها بانتظام فيحدث نغمًا خافتًا يتردد في الليل ويدخل إلى الحجرات، حيث هناك كانت دائمًا أحلام.

تردد الرجال على البيت، الجد الثاني فالثالث فالرابع[3] حتى وقتنا الراهن: جاؤوا وذهبوا حتى انتقل إل ملكية الأب، وحدث له ما حدث:

---

(1) فجأة.

(2) جد جد الأب.

(3) بالعكس على الأرجح.

انزلقت سقالة من الجانب الأيسر وسقالتان من الأيمن، وبدأت الأبواب تميل عن مكانها.

إن العطب بالطبع كان هو سبب ذلك)[1].

(فصل / 11 / أ)

وضاح: انزلقت الأغطية من على كتفي فتوقعت العدو، ها هي ذي النجوم ترتعش، والظلال المتناثرة تفترش المدى، ويدي تدفع طرف الغطاء الدافئ، كيف يمكن للمرء أن يستمر تحت شروط كهذه، أن يكون كل ما حصل نتيجة لما لم يكن لك فيه يد، إنني أرى الأفق وقد غطته السحب، والبقايا وقد ملأت الحديقة، ولم يبق إلا الأخشاب والأحجار المتناثرة، هذه هي الكتابات التي كانت تأريخًا أصبحت أدلة على تفجر اللحظات الأخيرة من الزمن، أرفع قدمي فوق صخرة سوداء تحت الضوء الخفيف، وأنصت لصوت الريح المرفرف على العشب بين الصخور، أمد يدي إلى جانب، وأتحسس سلاحي البارد في المكان الذي تعودت أن أراه وقت الفرح، إنني أنظر إل قاع الوادي، وأضع خدي على الحافة، لا أستطيع الهرب من مواجهة أسئلة عديدة حول المستقبل، أحاول ادعاء التمادي في أن ما يحدث سوف يحدث ولا شك، وأنه لا يهم على الإطلاق أن

(1) إنه هناك دومًا.

تدق الطالبات كعوبهن (احتجاجًا على طريقتي) في المدرجات، غير أن كل ذلك يتجمع. يقف هناك في مواجهتي، مع النوافذ والآنية والستائر التي اختلطت بالغبار، هناك، في الردهة، حيث يعشعش الخوف، ما يزال كل شيء متوقفًا على الخطوة القادمة، يومًا شاهدت القلق على "سونا"، وكنت أحبها وكانت هي أيضًا تحبني، تلك الأيام، ولكنها جاءتني باكية وقالت: هل تعرف، منذ أن جلست معك على المقعد في الحديقة العامة وأنا أحلم أحلامًا مزعجة، ثم انقطعت عن الحضور لمحاضراتي، ورأيتها ماشية على النجيل الأخضر وهى ترتدي فستانًا خفيفًا وحذاءً صيفيًّا ذا كعب عال، وعادت وأخذتني من يدي إلى جلسة أخيرة، وسألتني ذلك السؤال عن المستقبل، حتى هي سألتني عن ذلك، على أي حال، ها أنذا أذكر هذا جيدًا الآن، (ولم يكن الأمر نجومًا أو خيالات) لكنني أرى النهاية هناك بين الأنقاض التي يبول عليها السائرون، وتعشعش الفئران فيها، الآن، وقد هدأ الدخان، وخفتت الأصوات ولا من أجراس تدق ولا أيد ترتفع، والجميع يفكر في شيء واحد، أنظر، إنه الإشكال القائم ما بيننا وبين الأحلام، وإذا لم يكن هناك شيء آخر، فماذا يفعل الجالسون على أرصفة المقاهي، على أي الأحوال، كانت هناك فرص ضائعة كالعادة، وكان يجب أن أتمسك بها[1] حتى تبدو في حالة أفضل، وها أنذا الآن أرفع يدي من فوق

(1) أود أن أقف بجوارها على الأقل.

الصخرة، وأتمشى حتى الخيمة التي ترفرف عليها الأحلام، وأتمدد في الريح، لقد انتهى وقت حراستي، وها أنذا أسمع حديثهما في الداخل عن الزمن القادم، سنخرج وسنعود لأهلنا ونبدأ من جديد حياتنا، لقد انتهى وقتنا وسيجيء الدور على غيرنا، لكن الأتربة قد هبت في دائرة أخذت تدور بالأوراق في الساحة، وكان لا بد من أن أضع يدي على عيني، وها أنذا قد فعلت، ثم نمت واستيقظت على أصوات الصحاف، في عنبر الطعام، حيث تختلج الأفواه، وترتد الموائد بالصدى، إنه نفس الصوت الذي سمعته من قبل، فأمد يدي تحت الوسادة وأدير زرار الترانزستور لأسمع نشرة أخبار كاذبة أخرى، ها هي نوبة الرجوع، حيث يمتد الضوء على السماء، تسقط الأشعة البيضاء الخفية على ذيل الوادي الأصفر، وكان أول من غنى على سفح الجبل قد بكى فراق الحبيب، من النافذة بدأت قصة الحب (وبقية الأحداث الفاجعة) حتى تبدأ التلال في الارتخاء، تمد أرجلها في تعب، وتظهر الرياح المتربة الصفراء، وتتعكر الأمزجة، أبي يشتري نشّاشة جديدة مضادة للذباب، وأمي تغلق النوافذ قبل احمرار الشمس وظهور البوادر، لكن الريح جاءت في موعدها، كما تجاهل الناس الموقف وخرجوا للحدائق: خرجوا يأكلون الفسيخ، ويركبون القوارب، ها هي ذي الأشرعة تتمايل، والنيل مغطى بأوراق الخس والبصل الأخضر، ها هم هناك تحت الأشجار المتبقية من الحديقة، يذهبون ليتطلعوا إلى مياه النيل،

يلقون بالعرائس الخشبية إليه، يحدقون إلى انعكاسات أشعة الشمس فيما بين خط الشاطئ المتعرج والمياه الهادئة، ثم يعودون، إنهم يعودون في نهاية الأمر تحت سحابات الغبار، يتزاحمون على المركبات الخشبية التى تجرها الجياد الضعيفة، يعودون مرة أخرى ليجلسوا في الردهات، (حيث هناك ساعة خشبية أو نافذة) يرقبون الوقت. ينتظرون، ثم يتفرقون مرة أخرى، صيام يعود، سمراء تعود، سالي تعود، حتى علي يعود، وأبي أيضًا يعود من المقهى، ما عدا أمي، إنها جالسة على الكنبة وقد لبست طرحتها فوق منديلها، ودلت قدميها وأمسكت بفنجان القهوة محاولة أن تقرأ الطالع في بقاياه، أما أنا فإنني أتأبط كتب المؤرخين وأحمل الأوراق تحت ذراعي، أمشي في الأسواق وفي الشوارع، أحاول تفسير الأمور فيما قبل سقوط السقالات، ثم أعود مرة أخرى للبحث عن بعض الحلول[1]، أحاول مرة أخرى أن أهرب إلى الأيام الخوالي، وأمد يدي إلى جانبي متحسسًا سلاحي، أخرج إلى أعلى الجبل بالرشاش في انفعال، أعود إلى خيمتي وأتحسس أزرار الترانزستور، أستمع إلى مقدمة "ليالي الشرق" وأتخيل أمي جالسة تنصت[2] ثم أشد الغطاء على قدمي.

---

(1) الناجحة.

(2) كان أبي يستمع إلى برنامج مرزوق أفندي كل صباح (قبل ذهابه إلى العمل. ثم المقهى فيما بعد) منذ عشرين عامًا تقريبًا.

(فصل / 11 ب)

الأم: ذلك الصوت نفسه، ذلك الصوت، الاهتزازات الأولى في الجانب الأيسر، تلك التي تتردد في الجهة الأخرى، بعدها، تسقط قطمة من ملاط السقف، يعقبها، شرخ في الجدار، هل أنا في حاجة إلى نظارات طبية بالفعل، كما قال صيام؟. هذا هو الهدوء، فجأة، وبعد كل تلك الأصوات يأتي، ويجلس بجواري على الكنبة، يمدد قدميه، ويظل ناظرًا في اتجاه واحد، لا يحرك رقبته، مشبكًا أصابع يديه داخل بعضها، هنا، بجواري، فما الذي حدث إذن؟ هذا هو المصباح القديم المدلى من سقف الردهة، المصباح الذي لا يشع ضوءًا بل يعكس على زجاجه المغبر أشكال السقالات المتهاوية المتداخلة: تلك التي هناك، هذا المصباح المدلى وعليه خراء الذباب الذي لم يفكر أحد في نظافته، هذا المصباح يترنح على ضوء الهدوء الداخل مع الحركة المحيطة بغلافه يأتي بطيئًا من تحت عقب الباب، مع صوت الهواء المحمل بالرمال، كيف يمكن لامرأة مثلي أن تمد يدها إلى مصباح كهذا؟

هل أستطيع؟ ها هي ذي الأشعة تختفي[1]، السراويل تتدلى وترفرف، تتمايل أشرعة النوافذ وأنا أشعر بالدوار، وفي تلك

---

(1) بعد أن تجمعت وتشكلت.

اللحظة أعود لمواجهة الحقيقة، أتوقع مجيء صيام محملًا برائحة العشب الأخضر والكراريس، أتحرك من مكاني وأخطو، أخطو وأتلفت إلى الآنية في المطبخ، أدق في "الهون" الفارغ بعض الماء، أجلس وقد انتابتني رغبة في البكاء، هل أبكي؟ أم أمسك بالمقشة وأكنس بقايا الملاط المتساقط. أم أحرك السقالات قليلًا لأفسح الطريق، أضعها بحيث لا تعوق أحدًا، أفتح الباب وأخرج إلى "أم أنور"، أسألها لماذا لم أرها منذ زمن، أجلس معها قليلًا وأحدثها عن بعض الأمور، لكنني أتراجع، لا أستطيع أن أخلع ملابسي أو أرتديها.

(فصل 11 / ج)

سالي: أخذني من يدي وقال: هيا بنا، كيف يمكن لأحد أن يعرف ماذا يخبئ له الآخر؟ كيف يمكنني أن أطمئن إلى ذلك، قال وضاح ذات مرة: لا أعرف لِمَ – القوانين والعقود هي الإجابة القاتلة عن كل تلك الأمور، وجاء بخريطة وأخذ يحدد بعض المواقع، ولكن، بالفعل، عندما أشعر بأنني هنا، على هذا المقعد، تحت ظل المدير، وفي نهاية الشهر أتناول راتبي، فإن هذا.. ماذا كنت أريد أن أقول؟ على أي الأحوال، لقد أحسست بذلك تلك المرة، كنت نائمة وكان الولد نائمًا، وكنا نحس ببعضنا في الليل وهو يقترب

بقدمه مني فأقترب منه ثم أبتعد وأحدث صوت النوم، يقترب ثم أميل وهكذا كأني مستسلمة (لماذا أستيقظ؟) فيميل عليَّ، ثم أشعر به وهو يخلع لباسي عني فأغيب، ثم يعود إلّي الخوف أو التداعي، فآتي إليه وآخذه بين يدي وأشعر بسلام، ولقد كان هذه المرة هكذا، في خفاء، من وراء الـ.. كيف يمكن تسمية ذلك الشيء، سأحاول أن أكتب الفكرة في خطاب أرسله إلى فيلسوف العائلة[1]، إننا بالفعل نظام كامل.

شريحة دقيقة لوضع مثالي، كل منا يقوم بدوره في إتقان، ولا يمكنك أن تشعر به أيضًا، فرقة تلقائية للعزف في المروج[2]، تلك الأصوات التي تنبعث من النافذة، هناك في الحفر، بين القطع الممزقة الأوصال، والأخشاب المتناثرة المكومة على السقالات المتقاطعة، سأهرب بجلدي وأتقمص صورة المرأة، سأرتدي في الغد ملاية لف، وأعقص على شعري المنديل بالترتر، وأمشي أهز عجيزتي وأتكلم مع الرجال بالحلو في الحارة، وأرمش لواحد منهم، وأنا أسير والصفافير من حولي، أضع قدمي بين الكنبة والآنية التي ما زال صوت السقوط يتصاعد من عروقها، سأبدأ بالقفز فوق أكوام الملابس وأمد يدي إلى الشرفة. كيف يمكنني أن ألحق به هناك، أغير لهجتي وأنا أتحدث معه عن تلك المرة، لعله يأخذني

(1) وضاح.

(2) فيما بين الأنقاض.

وينتهي الأمر، إلى أين سأذهب إذن؟ إني أراهم هناك أيضًا في أرجاء المدينة المدوية، يخرجون إلى شوارعها القاحلة ويعتلون المآذن، إنهم يلجأون إلى الجوامع، يرفعون أيديهم إلى أعلى، يركضون أمام جحافل الجرذان، يغلقون آذانهم عند سماع المؤذن، وأنا أقف ممسكة بيده يحيط بنا الوحل من كل صوب، لا شيء آخر. كيف يمكن أن أفتح عيني في هذا الضوء، هذا هو الصوت يتحرك. يطرق باب حجرة المدير، يدفع الستائر إلى أعلى، يضع كفه على شعري، إنه يتحدث: هيا نقتنص تلك اللحظة، لقد كنا في الحديقة بالفعل، وكان من حولنا، والخماسين تذرف الرمال في عيونهم[1] فأمسكني من يدي ومشى بي بين الأشجار، ورأيت الفكرة ترفرف على عينيه، تبرق ثم ترتمي وتنام على نجيل الحديقة، وتقفز إلى فرع شجرة الكازورينا، وتركض في أعقاب العصافير، فوق سطح النيل المتماوج، لقد قال[2]: هيا بنا نهرب من هذه الريح. نندس في الغرفة، نقفل على أنفسنا الأبواب حتى تهدأ، حتى تكف الصحراء عن إرسال الزوابع، ها هو يتقلب الآن، في تلك الأيام تحمر عيناه وتتورم أنفه، لا يستطيع التنفس فيهتاج وهو يحطم الأطباق الصيني على الدرابزين، يلقي بالملابس من النوافذ، تقول أمي: جاءت الريح ومعها الغضب، هذه هي الجدران تهتز. تتساقط السقالات

(1) وهم صامدون عل المقاعد الخشبية.

(2) وهو يرفع يده إلى عينيه.

على الأرفف. تمتلئ الشوارع بالنفايات، تركض العجول المجروحة والخيول التى حطمت قوادمها، إنهم يخرجون جميعا، الماشية والدجاج والحمام والأطفال يركضون إلى المقطم، يعتلون الجبل الذي كان غابة خضراء، يتسلقون الطرق المنحوتة في جسمه، ليس إلى الغرب يلجأون، فالريح المحملة بالرمال تأتي من هناك، حيث ينفخ الفراعنة فيها، فيما وراء الأهرام، وما عليَّ إلا أن أردد ما يقوله وضاح عندئذ. هذه هي الكواكب السبعة، أنا أولا، أبي وأمي بالطبع، سمراء وعلي وصيام، وأخيرًا وضاح، كل يحتل جزءًا من الوقت على مدى الأربع وعشرين ساعة، كل صوت يسود في وقت، حيث كل صوت يسود في وقت كوكبه، كيف يكون الأمر وأنا أقف على حافة التردد، غير قادرة على أن أرفع من سقطتها، والسقالات تطاردها؟ وهي تصرخ: هيا بنا نخرج من القلعة، نقفز من الأسوار، إن الرصاص ينهال علينا، وهو ينظر إلينا من الكوة، تحميه الخوذات والدروع، انظري إنه يحدق مستمتعًا، لكن أحدًا ليس هناك، إن أحدًا لا يسمعني وأنا أنظر إلى عدة التليفون الخضراء، أنصت لوقع قدمي عم محمد الفراش وأنا ذاهبة إلى البيت، لا أحد هناك بالمرة. فالجميع[1] يمشون في ردهة المدينة الواسعة. ينتظرونه. ها هو ذا قادم. ها هو ذا يختفي. ها هو حاملًا صرته على كتفه. إنه راحل. إنه يطير فوق البساط. يهبط هناك في الميدان، تحيط به الخيول

---

(1) كل صوت على حدة.

المطهمة، أبوزيد الهلالي ذات مرة، حط الرحال، وحمل الجرحى حيث واراهم التراب. الشواهد ترفع عاليًا الأسماء والآيات والذكرى، لم أذهب إلى العرافة منذ كنت في السادسة، منذ ماتت عمتي، آخر حلقة في العائلة، وحملت لها الزهور (التي بلا رائحة) والسعف، وتناولت كسرة مع الواقفين وأحسست أن صوت المقرئ– بعدها– يحيط بي في فراشي، وفزعت في نهاية الليل، قال أبي: مددوا أطرافها وهاتوا لها ماءً باردًا، هكذا يقول أبي، وتنثر أمي الشعير والحناء والملح عليَّ وعلى فراشي، وتدور بالمبخرة في الغرفة، لقد زارنا الشيخ في الظهيرة، هكذا قالت العرافة، وتطارده بالتعاويذ، وهي تفتح فمها المليء بالأسنان الذهبية وتحدق من النافذة الكبيرة، "هذا ودعي" قلت لها ذلك بعد أن تعافيت، نظرت أمي إليَّ وهي تزم شفتيها وبكت، قالت: سيكون هذا هو الطريق، وأشارت إلى ودعة مقلوبة على قفاها، رافعة أرجلها في الهواء، مستصرخة ذلك الصوت، ها هى ذي الشمس تنحرف، أراها[1] تجلس بجواري في ظل الباب اللامع، صفراء تحف بها الأتربة، إن وقت الرحيل يأتي دائمًا في مثل هذا الموعد، عليَّ أن أستعد للخروج وأنسى أنني قبضت على لحظة مختلسة في الفراش، تذكرت فيها ذلك الصبي، أحسست به وأحببته.

(1) تلك الشمس.

(باب / ر / 2)

نظر الساعي المتعب إلى البيت وتقدم ناحيته مترددًا، كان الرقم قد سقط منذ فترة، ولم يكن هناك من إجابة وهو ينادي، فذهب وسأل في البيت الآخر، لم تكن الرسالة لأحد هنا.. ولم يحدث شيء خاطئ يعيد الساعي لينادي على من هناك، فقد توصل إلى العنوان الصحيح، ولم يكن هذا إلا العنوان الخاطئ، على الرغم من أن هناك من كان يود أن تصل رسالته وهناك كان من ينتظرها، خلف الباب وفي الردهة، حيث مضى وقت وهي تحدق إلى الملاط المتساقط، وهي تنتظر أن تنهار العريضة، إنها تترقب الهزات الأولى، وتستعد بالهرب إلى الحديقة، وفكرت أن تملأ الحقائب بالأشياء التي تحتاجها، حتي تكون على استعداد بالهرب، هناك.. ربما ساعدتها على الحياة، وقررت[1] أن تقف بالتاريخ عند هذا الحد، أن تكف عن تعذيب نفسها بأن تتخلص من البيت، لن تستجيب إلى السؤال.. إلى أين إذن سنذهب؟

لكن. لا الزمن ولا أي شيء أسعفها، على الرغم من أنها كانت تعشق النظر إلى تلك الساعة، فمال الجدار بالفعل، هذه المرة بدت الشروخ على أهبة الاستعداد للظهور بصوتها، ولم

---

(1) فجأة.

يكن قد انقضى أكثر من ساعات على بداية الصباح، هي إذن بعد الظهيرة من نفس اليوم الذي بدا لسبب أو آخر حلمًا وكان لا بد من أن يتذكر الجميع تاريخه السابق:

لقد بناه الجد الأول[1] زمن كانوا يبنون البيوت ومن حولها حدائق، ونوافير، وكانوا يجعلون من الردهة مكانًا فسيحًا، يعلقون على جدرانها صور رجال العائلة، وتلك الساعات الخشبية الكبيرة، التي يدق بندولها بانتظام فيحدث نغمًا خافتًا يتردد في الليل، ويدخل إلى الحجرات، حيث هناك كانت دائما أحلام.

تردد الرجال على البيت، الجد الثاني فالثالث فالرابع[2] إلى وقتنا الراهن: جاؤوا وذهبوا حتى انتقل إلى ملكية الأب، وحدث له ما حدث:

انزلقت سقالة من الجانب الأيسر، وسقالتان من الأيمن، وبدأت الأبواب تميل من مكانها.

إن العطب بالطبع كان هو سبب ذلك.

(1) جد جد الأب.

(2) بالعكس على الأرجح.

(فصل / 12 / أ)

الأب: بينما أستند بيدي على كاهل البنك، أرى الخروج يندفع بالوجوه المتعددة، ترتفع الأيدي بالخيط الذي تسحبه الريح إلى أعلى، (لم تكن هناك ريح كريح هذا العام) جاءت الرمال وحطت على الأضلع الممزقة المتناثرة من بقايا السقالات، وعندما حط الطائر الأعرج على الجرف، صرخت القطة من تحت الصندوق الذي تدحرج تحت الأحجار، كيف بدأت المفاجأة، كيف انزلقت القوائم. أين يمكنني أن أعثر على صورة الجد الأول، ماذا يمكنني أن أقول وأنا أتطلع إلى عينيه؟ تلك كانت مؤامرة، تراها، ولا تحس إلا بالضحك وبالنشاز، أخذت حفنة من الرمال التي انسابت من بين أضلع الجدار الثالث، ونثرتها فوق الباب الحديدي الذي ظل ثابتا (ربما ليعلن تحديه للزمن) وأنا أحدث نفسي، لم أر سوى لحظة خاطفة في عينيها، كانت تتساءل والغبار يرتفع بين الأنقاض، عن المستقبل، وتنقل عينيها متشبثة ببقايا الأشياء، أين

الورقة التي اقتطعتها من جريدة الصباح، ماذا كانت تقول[1]؟ هل يمكن أن تكون هذه النبوءة صحيحة بشكل ما؟ ها هي ذي الأقدام تهتز أمام بصيرتي عل الطوار، كيف يمكنني أن أزن الأمور أو أعيد بقية "الفكة" ليد ملطخة بالزيت والرعشة؟ أخذت أحرك المقعد وأغير الموقف متابعًا المصير تحت تأثير المشاعر المتضاربة إثر ضياع علبتها النحاسية التي تحتفظ فيها بالأزرار، ها هم يأتون واحدًا وراء الآخر -أراهم يركبون الحافلات - في الطريق إلى رؤية أسرتهم وهي ما تزال تحدث أنينها الختامي تحث السقالات الثقيلة، والأحجار المتهافتة، ربما لتحكي حكاية أربعة[2] أجيال متعاقبة سلم كل منها يده للآخر، وعلق الأثر بعد رحيله على ضلفة الباب، لم يكن صحيحًا بالمرة، يوم تدلى جذع الشجرة، أنني وقفت حائلا بينه وبين الاستمرار في وقفته المعتدلة، ها

(1) عندما يتعالى نباح الكلاب بلا سبب مفهوم، وتتصاعد من حظائر الماشية أصوات قلقة خائفة، وتهرب الفئران من جحورها منطلقة في الطرقات، وتقفز الأسماك من البحيرات في الهواء، عندئذ ينبغي أن نتوقع حدوث كارثة طبيعية. إن سلوك الأبقار والدجاج والنمل والببغاوات، بل وسمك السردين في البحار والأنهار، يعبر عن إحساس باقتراب كارثة ما قبل وقوع الكارثة بساعات، وأحيانا يظهر هذا السلوك قبل الكارثة بأسبوع قبل الهزات الأرضية والعواصف، يخرج الجمبري من المياه ويزحف نحو الأرض الجافة، والنمل يلتقط بويضاته وينطلق في هجرة جماعية من المنطقة المهددة بكارثة. وتتعالى الأصوات المذعورة من الديوك البرية.. وينهض الدب القطبي فجأة من بياته الشتوي.

(2) وربما خمسة.

هو الوقت يمر[1] دون أن أحقق رغبتي في زيارة القلعة، لكن، قل لي بالله عليك ماذا سيتغير عندئذ، إنه العطب في الداخل، وتلك الرغبة في الاسترخاء، ربما، والتمطع على مقعد نحيل، ومتابعة المارة، كل هذا الذي انتهى أوانه، وتوقفت هي هناك، عند حدود الوهم الذي كان هو السبب الوحيد في بريق عينيها الذي بادلني وهما بوهم، كنت أنتظر مجيء الواحدة منهن إلى حجرتي، دون أن أبدي أكثر من حيلة مكشوفة أتوقف بعدها كالساعة الخشبية في الردهة، عند السابعة وعدة دقائق، إنني أنصت إلى صوت السيفون من خلف الجدار[2] متوقعًا أن يحدث إغراء ما بعد كل مرة، كانت حركتي من فوق المقعد، ربما إلى الشرفة، ربما إلى دورة المياه أحيانًا، دون رغبة في التبول أو من هذا القبيل، مدعاة للتوقف عند نقطة معينة، ليضيع بعدها الوقت، على أمل عودة الشرارة التي عملت على انطفائها، يضيع بعدها الوقت، لقد جربت بنفسي –نعم– الاعتدال في ترتيب الأشياء، وكانت النتيجة مرضية، وكان الطبيعي أن أستمر في المحاولة، لكنني كنت قد فقدت الاهتمام، بعد أن تعلقت بالخيط الذي قادني إلى نهاية القصة، مرة واحدة –هي هذه التي أضع فيها اللمسات الأخيرة– قررت الاستمرار، وكان هذا تحديًا للعدو الذي هو هناك لا يبرح الجبل ولا الرغبة في

(1) بالفعل.

(2) في المتجر.

القتل، ما الذي تريدونه بنا؟ أي شر جعلكم تختارون هذا المكان، لكن، كان لا بد من حدوث شيء على هذه الدرجة من الخطورة حتى تتضح الأمور وتصل إلى نهايتها الطبيعية، ها هو ذا صوت أم محمد يأتي مرة أخرى من الخلف، ماذا تريد هذه المرة[1] لا بد أنها في حاجة إلى صابونة تحركها على جلدها المجعد وتتشمم رائحتها على صوت وابور الجاز الرتيب، لا بد أنها تتحدث عني[2]، لكن، ومرة أخرى، كيف يمكن لمثل هذا الأمر أن يتركني متشبثًا بهذه الجلسة هنا، أيكون هو الخوف إذن من تحقق النداء الذي تحدثَت به، أم رغبتي القديمة في أن أعيش وحيدًا ومحطمًا في غرفة مغلقة مع أكوام الجرائد القديمة، أملأ الكلمات المتقاطعة، وأقرأ الخبر –نفسه– كل يوم خمس مرات، بعد كل صلاة أقوم بها، وأنا ممدد على فراشي ألعب في «....» مفتقدًا تلك الأيام التي كان فيها يتحرك بمجرد لمسة من الجلباب، إنها بداية النهاية التي لا بد من الوصول إليها، ها هي ذي الخادم تتعلق بالنافذة من الطابق الخامس تميل برقبتها وهي تنفض الشراعة وأتوقع سقوطهما[3]، ليس الأمر هكذا بالمرة، إنها رغبتي في حدوث حادث موازٍ، حتى أسير على القضبان وأحدث صفيرًا عاليًا أخترق به المدينة

---

(1) إنها تدق على الجدار.

(2) كأحمق.

(3) البنت والشراعة.

من شمالها إلى جنوبها وبالعكس، في مدار واحد محدد ومواز[1] إن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد انتقال. تتخلله تلك الجلبة، تلك الحدأة التي توقفت على إيريال التليفزيون، تهزه وتمضي، تحوم، وتحط على سطح أقل ارتفاعا: تنقض على دجاجة وترفعها عاليًا. والدم – والصرخة الأخيرة – ينساب على رؤوس المارة، يزرر الرجل المطل جاكتته ويحدق إلى هناك، يعدد – بهزات من رأسه – الحمام السابح فوق العشة الخشبية بجواره على الشرفة، وامرأة تعلق لباسها الداخلي الممزق على جانب الحبل، لكن، لِمَ أنظر إلى أعلى، إلى الطوابق العلوية من الأبنية المواجهة، إلى خصص النوافذ المعلقة، والستائر، الستائر التي ضجت كثيرًا، وحكت مع الريح حكايات، ها أنذا أراهما: الولد والبنت وهما يتشاوران من الشبابيك، تشير بأنها لا تستطيع، يلح –بعصبية– أن تلاقيه في الخامسة[2] تستجيب فجأة وتهز رأسها وتبتسم، ثم تلقي إليه بقبلة، جاء بائع الصحف صائحًا: «استقرار نظام الحكم في الأهرام» ويقول للجزار المجاور: هناك لا بد شيء ما (ويضحك ماسح الأحذية: «الولد يتكلم في السياسة»، ثم أنسحب أنا للداخل، أقلب العلب الفارغة، أتحدث مع البراميل، لكن الوقت يمضي، يمضي الوقت، ولا محالة –بعد– من الوقوف أمام الباب

(1) لكل العالم.

(2) يفتح أصابعه الخمسة.

الحديدي المغروس بين الأحجار.

(فصل 12 / ب)

صيام: سنبدأ في الغد رحلة التنقيب التي تأتي نهاية كل عام، سيكون عليَّ أن أستيقظ مبكرًا جدا، سيكون عليَّ أن أملأ حقيبتي بالمعدات، سيكون عليَّ أن أستعد منذ الليلة السابقة، وأن أقتنص ما أمكنني بعض الأشياء، وأن أخرج قبل أن تبدو الشمس في الأفق، سأخرج وأضع قدمي على الرصيف، وأشير إلى أقرب عربة مبللة بالندى، وأتحدث مع السائق الذي يصل مع أول سيجارة في الصباح، سأستمع لنشرة الأخبار من الراديو، وأقرأ «الأهرام» وأنا أقف تحت شجرة الميدان وسيأتون، ستأتي إكرام، ووسامة، وليلى، وسلوى ومحمود، وغيرهم، سيأتي الفريق وننتظر جميعًا تحت الشجرة، وستأتي العربة ونركبها ونرحل، وسيكون معنا أساتذة ومعيدون، وسنذهب إلى هناك[1] ونقيم معسكرنا ونرفع لافتة: «قسم الآثار -كلية الآداب- جامعة القاهرة» وسنبدأ الدق على الحجارة، ونرفع الأتربة، ونتحسس الحفر، وكل ذلك في الظهيرة، سنكون قد أنجزنا شد الخيام، وتحديد سور للمعسكر، وأقمنا حجرة عمليات، ورفعنا علم الجامعة عاليًا في الظهيرة، والآن أنا أقف

(1) إلى الصحراء.

وأتطلع للأرفف المكدسة بالأحجار والكتب المجلدة، وصور الرواد[1] في قاعة المطالعة، مفكرًا في المراجع التي سأحملها معي، فرحًا بوضعي أنا المكتشف الشاب الذي يحاول أن ينسى[2].

نعم، إننا سنختتم المحاضرات بالضرب في أحجار الصحراء، حولنا يمتد سياجنا الذي شيدناه بأنفسنا، بعد أن خضنا في الأوراق عامًا كاملًا، نذهب إلى هناك لنضع لحن الدق على الأحجار، باحثين عن مدخل السرداب الموصل إلى حجرة تابوت الملك، نتعثر في خطواتنا في الظلام، نشعر بالخوف[3] من أن تنهار السقالات، ها هي ذي جدران السرداب ترتج، تسيل الأتربة على جانب، والآن (من الجانب الآخر من السرداب) بدت السماء ملبدة بالغيوم، والريح تهز أشجار التين النابتة في الملح تحتضنها الأشواك من الأسفل، حولها، تتشبث بأقدامها وهي ترتعش، في الموعد الذي يخصنا بالأتربة، أرفع يدي إلى عيني، وأشم رائحة الرمال والبلل، والبقايا المتناثرة من الحجارة المتهدمة، والمعاول، والمقاطف التي امتلأت بكسر من أواني الفخار[4]، إنه الصوت الضارب من الزمن القديم، الصوت القادم من الصدى من الجانب الآخر من السرداب المعتم، ها

(1) المعلقة في إطارات مذهبية.

(2) ما يحدث هناك ولا بد.

(3) ونحن نرتجف.

(4) حيث ما تزال رائحة الجعة.

هم يتحدثون، إنهم هناك، يتمددون بجوار الخبز والشعير وزيت المواقد، أتحسس بقدمي الحفرة، وأطلع. أتقدم خطوتين للأمام.

يأتي الليل دائمًا ونحن نشعل النار أمام الخيمة، نبدأ في الثرثرة حول ما حدث طوال يوم العمل حتى يذهب كل منا إلى فراشه، فأظل –وحدي– أستمع لصوت الكلاب هناك، وأصغي للريح التي تمخر أطراف الخيمة.

يأتي الفجر –دائمًا– وأنا ما زلت مستيقظًا[1]، متوقعًا قدوم صوت محرك العربة، (من بين صوت الكلاب والريح) أرفع رأسي وأطل من فتحة الخيمة إلى الريح، والصحراء، وكل أثر على الضوء الخفيف، وأسند رأسي إلى الوسادة، أحس، مرة أخرى، صوت الصحراء، أجلس على فراشي ممددًا قدمي، أشعر بالنمل يتسلق أصابعي فأنفضها.

(فصل 12 / ج)

سمراء: لقد أشرفت على نهاية الحكاية بالفعل. ها أنذا أرى بقايا الحطام ملطخة على جدران الشوارع، مكتوبًا على أضلعها عبارات بذيئة، بجوار أرصفة المدينة المهتزة بالأقدام، ها هو

---

(1) مصابًا باليقظة.

ذا مقعدي الأثير معلق في الميدان (تحت علم الجمهورية) قطتنا تسعى في الشارع. تبحث عن الطريق المؤدي إلى الكوبري الخشبي لتنتحر من فوقه، هذا الجانب من إفريز الشرفة، هذا الجانب، كم استندت عليه بثديي؟ ها هو ذا ملقى على الرصيف، كل ضلع[1] في جانب، وهو، ذلك الذي.. مد إليَّ يده المليئة بالخواتم وداس على ذراعي، (كان عليَّ أن أبتسم، وبالفعل، ها أنذا أقف وسط الفساتين) ثم وضع يديه في جيبي سترته، وربطة عنقه المخططة تتمايل، وأخذ يحدق إليَّ كشيء يحتار في التصرف معه، ثم يقول[2] «غيري الكاسيت» إنه يريد رقصة مختلفة، أصوات من تلك التي تضج داخلك، وددت لو اقترحت عليه أن أذهب معه، لكنه يتحرك، يخرج ويقف على الرصيف، أجلس على ركبتي وأرتب الملابس الداخلية، كل حجم (من تلك الأحجام الممتلئة) لوحده. وكل ثديين لوحدهما، الأحمر والأسود، البنفسجي والأصفر، كل ذلك بالفعل، فهل أقف إذن؟ هل أضع يدي على الطاقة المفتوحة في الجدار؟ تلك التي تنبأت بها العرافة يوم سقط الطائر من فوق الشجرة العجوز، وحملناه إليها كي تدلنا من يكون حقيقة، وقالت إنه روح الجد القديم، أخذناه وأرضعناه، وعلمناه الطعام حتى تعود[3] الأكل من

(1) خرطه النجارون.

(2) انظروا.

(3) ذلك البلبل.

الملعقة، ثم اختفى تمامًا، وبعدها. عثرت أمي على بقعة من الدم في ثوبي[1]، وقالت العرافة إن فألي لم يعد حسنًا، وأخذت أمي تنظر إليَّ باستنكار من يومها[2] وأنا هناك، في ذلك الجو الغائم الذي كان اهتزاز السقالات من فوقي يعيدني إليه[3]، مرة (حدث هذا بالفعل وأنا أمشي على الطوار) لطمني أحدهم بلا سبب فشعرت بالنشوة، وقالت سمراء إنها لو تلقت هذه اللطمة لقتلته على الفور، بالطبع، تشاجرت، وشتمت، لكنني أحسست لقد وصلت إلى هذه الحال إذن، بتلك المشاعر، لم يهددني تشتت ذهني إذن، ألا أستطيع الجلوس لنصف ساعة كاملة، متواصلة، أقوم خلالها بفعل شيء واحد، وأنا معه، بكل التفاصيل؟ عندما كنت في السادسة، أذكر ذلك، لكن، لا، ما الذي يدفعني إلى ذلك، إلى التفكير في شيء كهذا، هل هناك مؤامرة من النوع الذي يسيطر على أمي، إنها تحلم بالأخشاب والسقالات، ببقايا الطوب والرمل والحديد، بالعفش المتناثر، وبالثياب، لكن، هل يمكننا الرجوع عن شيء كهذا، ها هو الملل يزحف مرة أخرى، في هذا الجو القائظ، مع الرطوبة والعرق وصمت الطريق، في اللحظة التي اختطفها من

(1) الذي كان ملقى على الأرض.

(2) بل بعدها بالأحرى، عندما كان يشد على إبطي بعنف، يرفعني ويعيدني مرة واحدة، يدوسني في أحشائي، وأصبح ذلك هو الطريق الوحيد لمتعتي، التي لم تعد الرقة تأتي بها، ووصلت لها مرة واحدة عندما سال الدم في أظافره من إبطي، تلك المرة.

(3) لقد وصلت إلى هذه الحال إذن.

الضجيج، ها أنذا في حدود هذا المكان[1] الممتلئ ثيابًا وأشياء البلاستيك، كل ثوب سيذهب إلى واحدة، كل واحدة لها عالمها، وددت لو تركت نفسي داخل كل ثوب وتلصصت عليهن جميعًا، كيف سيكون الأمر عندئذ، هل أعود لأيام اهتماماتي بصندوق البريد، تلك الأيام، بالفعل، سأكتب رسالة إلى «علي»، لا، إلى وضاح، سأجلس وأكتب له رسالة تملأ كراسة كاملة، سأقول له كل شيء عن تلك الأصوات التي تحف بالأطراف، وتحاول تحريك القلب، وتحريك القلب، تلك التى تحدث ضجيجًا من زمن سحيق، سأدفع الثمن غاليًا وأنا أوضح التفاصيل، سأعيد الكرة مرة ثانية قبل أن أمسك بالخيط الأخير، إنه هناك يتطاير في تلك البقعة الدائرية الشفافة أمام عيني المرتعشتين، حقيقة إنني لا أريدها أن تنتهي[2] وددت لو عشت معها عمري، عندئذ، وأثناء النفس الأخير يمكننا أن تنهي نفسها بنفسها، أن تضع نهايتها بيدها، (كمن يطلق الرصاص على قلبه)، ها هي ذي الأصوات مرة أخرى، تلك العربات التي تمر، وتحاول أن تخفيها تحت أصواتها، لكن، إنها محاولة يائسة على كل حال. بالطبع إنني.. ماذا؟ أعني أحيانا أشعر بالرغبة، هذه الرغبة، كيف يمكن الحديث عن مثل هذا الشيء؟ ألم تمضي الأيام على تلك الأمور، هل يمكن أن نظل هكذا،

---

(1) 3×4.

(2) تلك الحكاية.

في نفس الوضع : (تحتنا خط التنبيه)، سأترك البوتيك وأذهب إلى السينما (سيكون هناك بالطبع رجل يجلس في الظلام على المقعد المجاور) سآخذ يده وأضعها في صدري، أتركها هناك حتى ينتهي الفيلم، أتأبط ذراعه مع الخارجين، وهناك أنظر إليه وأتركه على الرصيف، ماذا؟ سيكون عليَّ بعد وقت أن أعيد الكرة، أن يكون هناك شيء يمكنني أن أعيده، أحكي الحكاية من جديد وأنا أشد بيدي طرف الدانتيلا.

(فصل / 12 / د)

علي: لم يكن من اللائق أن نترك الأمور هكذا، لكن كان عليَّ أن أكون إيجابيًّا بنفس الطريقة، ها هي ذي الصحراء هناك، تلك السلاسل الجبلية والكثبان، والطيور الضعيفة، لقد مرت من هنا جيوش روميل، حيث لم تزل آثار المعارك بين الظلال، هناك –في تلك الهوة – انسحبت الأنفاس وهي تنصت لوقع المركبات، ها أنذا أتبادل الدور مع وضاح، أستيقظ على ضوء الشمعة التي أهداها إليَّ في الميناء، أضعها على كفي وأترك زيتها يتساقط وأنا على مسافة آلاف الكيلومترات، سأترك مهنتي وأتتبع الطرق التي سلكها أبو زيد الهلالي، لا بد أنه استراح هنا، تحت إحدى الأشجار، لا بد أنه وقف على أطلال من نوع أو آخر، ولا بد أنه قال قولته

المشهورة[1] وها هو ذا صوته يتردد مع الريح أثناء السكون الذي يعتصر الحجرة، لا بد أن يكون الأمر على هذا النحو، فها هي ذي يدي ترتعش، أشعر بالحموضة تعتصر معدتي، أراهم هناك يجلسون حول الراديو، يتناولون طعامهم في عجلة، منتظرين الرحيل في الغسق، تحت ظل النجمة الطالعة في قبة السماء، مع آثار الشمس، والبقع البيضاء، يقلبون الوثائق[2] يحصون كل شيء على حدة، ويعدون للأمر عدتهم، إنهم هناك، يستعدون للسير على الأقدام، عبر الشوارع والأرصفة، بين العربات والمارة، يشقون الطرق، واحدًا بعد الآخر، يحاولون مرة أخرى، يرفعون رؤوسهم المنكسة، ينتظرون في الميدان، تحت المظلات الحديدية، يعبرون إشارات المرور، يمشون على الكوبري الدائري، وينزلون الدرجات، ها أنذا أراهم، إن أبي في المقدمة، ممسكًا بذيل ثوب أمي، ووضاح يحمل "الملازم" في يده، ويمسك "بالمراجع" تحت إبطه، وأنت يا سمراء تمشين بتثاقل، ليس كسالي تركضين، وتتلفتين للخلف، تنادين على صيام[3]، تخشين دائمًا أن يذهب بعيدًا بين الجموع، وتغرينه بحبات من كيس اللب الأبيض، والإنصات إلى قصة حبه وأنت تسألين: "كيف حال الغزالة، أين

(1) أي التي اشتهرت فيما بعد.

(2) وشهادات الميلاد.

(3) المتكاسل.

ترعى تلك الظبية؟" وأمي تنصت وتنظر (بنصف عينها الضعيفة)، ها هم يمرون أمام مبنى شركة النقل البحري ويتحسرون، أسمع الشفاه وهي تتراجع، والأيدي وهي تشير للإعلان عن الرحلة القادمة، كيف يمكنني أن أتساءل وأجيب، كيف يمكنني أن أجلس بينهم وهم يلعبون الورق، يقرأون الرسائل بصوت مرتفع، يضحك إسماعيل –وينادي من الحجرة الأخرى– على خط ابنته، يحدثه سالم عن تكلفة مرايل المدارس لسبعة من الصبية، ويقرر أحدهم فجأة: "سأعد حقائبي".

ويفتعل الرحيل، وأنا ما زلت أتقلب على الفراش في حجرتي، أفتح عيني وأغمضها، أدس رأسي في الغطاء وأقول أن لا شيء أفضل من ذلك، أعد نفسي مرة أخرى لأن تكون أكثر صلابة، أن تتلاءم مع الوقت الجديد، وأن تحلم بالوقت الآخر، في خطوات متعثرة، نعم، يتحرك كل شيء، لكن كل شيء ينتهي إلى نهايته «المحتومة» ها أنذا إذن أقترب من النهاية، من الدرجة الأخيرة في السلم اللولبي، على الرغم من أنني كنت أعض على نواجذي منذ لحظة، ها أنذا أتغير، مرة أخرى أفكر في أنه لا الكآبة ولا شيء من هذا القبيل، يمكنه أن يكون دليلي، عليَّ إذن أن أرفع الغطاء عن وجهي وأعد لنفسي كوبًا من الشاي في المطبخ، وأذهب لأجلس بينهم، وأدخن عدة سجائر متتالية، حتى يحين وقت الحديث، فأتحدث، ثم أعود إلى الغطاء، لا، لن أعود، سأجلس في الشرفة

ذات الضوء الخفيف، وأصارع كل ذلك، دون معونة من أحد: سأحاول في وحدتي أن أكون، كما يمليه عليَّ الواقع، سأجلس، ربما لكتابة مذكراتي، ما، هذه.. أعني: هذا تطور آخر، نعم، إنها فكرة جديدة على كل حال، لكنني ماذا سأقول، ألن أضطر للوك الكلمات مرة أخرى، ومن تعنيه قصة حياتي بحال، وهل هناك، سواء في أطرافها أو وسطها، ما هو مثير، ها أنذا أعود مرة أخرى، لا غرابة في الأمر، لا غرابة في شيء قد حدث.

(باب / ز / 1)

(كانت الغمامة التي كونتها الأتربة قد تكاثفت من حوله، ونشرت الأشعة الباهتة نسيجها على جوانبه، كانت الستائر قد طويت، والأبواب قد تحركت، وقد بدا الآن خاليًا إلا من تلك الأصوات: هبات الريح في الصفائح المستلقية بين الحجارة، وخربشة الأوراق في الحفر، ورنات الزجاج المحطم، وقرقعة الخشب، وكل ذلك بدا منذرًا بوقوع الكارثة:

ها هو ذا الدلَّال المنادي يمسك بالجرس، يردد العبارة[1] حيث يأتي التجار من كل صوب، لقد جاؤوا، من هنا وهناك،

---

(1) ألا أونا. ألا دوا. ألا تريو.

ووقفوا حوله، وتجولوا داخله[1]، لقد مضوا في جميع الاتجاهات ونظروا إلى البيوت المجاورة، وتحسسوا أضلعه، ومواسيره، وعدوا السقالات، والحجارة، والأبواب، والشبابيك، بلاطة بلاطة، وقطعة من النحاس، وقطعة من الحديد، ومشوا خطوة خطوة بالمتر والذراع والبوصة... ثم مضوا يهمسون لبعضهم في افتعال وخيلاء.

والجرس يرتفع عاليًا ويجلجل في يد الدلَّال، وصوته ينادي، وهم يبدأون المزاد بالعد، أولئك الذين قدموا من كل صوب، بالرقم الأخير.

(لقد بدا لهما بخسًا ومحزنًا ومخجلًا وهما يقفان بعيدًا بجوار الشجرة)

وقد بدا لها الأمر أقسى مما تحتمل، فتحركت، وتمددت، وتثاءبت، وانخرطت في البكاء، وكان هذا هو صوت الغرفة المنتظر: الصوت المتقطع الرتيب)

(فصل / 13)

علي: الصحراء تسكب النجوم فوق الرمال، وتركض القطط البرية على حافة السور الممتد بلا نهاية.

---

(1) وهم يرفعون أيديهم إلى أعينهم.

سمراء: ها هي ذي الدماء توجعني، أشعر بالألم، والخوف، واللهفة، دفعة واحدة، فأمد يدي إلى درج الأدوية وأستند برأسي على الزجاج.

الأب: لقد كنت في ظل الشجرة أحتمي، كانت تلك عادتي في تلك الأيام، ها هم يعودون، واحدًا بعد الآخر، يجلسون، في الردهة وهم يتطلعون، إلى أعلى.

وضاح: تلك اللحظة الآتية، اللحظة التي نحاول أن ننسى، ها أنذا أخوض في ماء راكد، في وضع الاستعداد، من لي بزمن متغير، زمن عاجز أستطيع ترويضه، في تلك الحديقة الخضراء.

سالي: انظر هناك جيدًا يا وضاح، إنها جافة، إنها لا تعطي ثمارًا لأحد، ألم أقل لك من قبل كثيرًا؟

وضاح: ربما يكون هو كذلك، ها هي ذي الأوراق (من كتب التاريخ) تتطاير تحت السرير الحربي.

علي: الرمال قادمة، تلك الزواحف قد اشرأبت بأعناقها، هكذا جاءتني الرسالة، بعد انتظار دام.. يا لي من أبله، ما الذي يعنيه تحديد الوقت بالدرجة الأخيرة.

الأم: ها هو ذا الجرح ينقلب، تأتي الآلام في وقت، وتمضي في الآخر.

سمراء: حملني عل يديه وطار، لكن الملل كان لم يزل.

صيام: باتت كل المحاولات على الطريق.

وضاح: على الرغم من كل بحثك في آثار الأقدمين (وربما الآتين) فإنك ستظل تحمل كراريسك أيها المعلم.

الأب: حتى ولو أطلقت لحيتي في الفراغ، لو خرجت من جلبابي الفضفاض على الرصيف، لو سكبت كل زيت الدكان، لو نثرت كل الخرز الملون من حقيبتها، ماذا سيكون عليه الأمر عندئذ؟

الأم: انظروا، لقد سقطت على يدي، انظروا، إنها هذه المرة قطعة المقدمة (ذات المدخل البطيء)

الأب: أرى بقاياه في الطريق.

سالي: أضلعه هناك.

وضاح: ها هي ذي المريلة –مريلتي– التي كانت في درج الدولاب السفلي منذ الطفولة –ولها رائحة النفتالين– معلقة على الخشبة الكبيرة المائلة.

صيام: الرمال تجري بحبل الغسيل حيث لم تزل بعض المشابك الخشبية معلقة في طرفه القصي.

علي: ها هو ذا الديك الكاذب ينادي، أسمع صوت انكساراته المتتالية مع انزلاقة العامل من البلدوزر.

الأم: ها هو قلبي يتـ... إنني أتصبب عرقًا، إن أنفاسي حرى ويدي باردتان، إنني أنتفض، إني أسقط.

الأب: حاولي. قلت لك حاولي قليلًا، حاولي أن تأتي

بالخطوتين، لقد اقترب بيت أخي وليس لنا بعد سوى الحجرة الوحيدة، الحجرة الصغيرة بالشرفة.

سالي: ليس هناك بعد من شيء سوى أن أمضي معه، سأذهب إلى المكان الذي أشار إليه، سأحمل حقيبتي على ذراعي وأتعقبه.

سمراء: هناك تلك الشقة، لن تهمني الصراصير ولا رائحة البغايا المتبقية على أضلع المساند.

علي: كانت هناك رسالة أخرى لم تصل، لذا فإنني لا أفهم الإشارة الى المواضيع السابقة، لا لم أعرف بكل ذلك.

الأب: ليس هناك من حل سوى هذا، «لم يعد التلطيخ مفيدًا» هكذا قال الجميع، عليَّ أن أضع إعلانًا في الصحيفة وأتخلص من حمله الثقيل.

الأم: ها هي ذي الفئران تخرج من جحورها، تهز رؤوسها، إن اللحظة قادمة ولا شك.

سالي: أيرضيك منظر الدم وهو يسيل من وجوهنا المشروخة السحن؟

وضاح: زمجرت طلقة في فراغ الصحراء، انكفأ صوت الصدى ثلاث مرات ما بين الجبل والوادي، ولم يعد هناك سوى محرك الموتور ونبع الماء اللامع.

صيام: إنكم تهذون، ها أنذا أجلس على حافة النافذة كالعادة

أقرأ في كتب الآثار الدارسة[1] أراقب بنت الجيران الواقفة في الشرفة، مطلة بصدرها العاري إلى الأرض (إنها تضعني في قائمة الأزواج) سأذهب وأنادي عليها وأنهي كل شيء دفعة واحدة.

سمراء: إنني أعد على أصابعي حتى أتحقق من الأمر، أرى الفساتين تحوم من حولي وأنا أتشمم الغبار الطالع من بين الأحجار.

الأم: ها هي ذي سالي حاملة حقيبتها، إنها تبتعد. إنها الآن خلف الأشجار، خلف عربة النقل الكبيرة، إن الأخبار تنقطع عنها وها هي ذي تغيب.

الأب: رأيت وضاحًا يخرج من الأوتيل حاملًا ملازمه، إنه يرتدي سترته ويحدق للأمام.

صيام: سأدخل المدينة الجامعية وأنتقي زميلًا أتحدث معه في الأمسيات، وسأحمل معي ذلك الصندوق الذي يخفي الأميرة المسحورة، والتعاويذ والرقى.

وضاح: إن سمراء تخرج إلى الجبل العالي محلولة الشعر، تحادث الأشياء بالكلمات، وتضرب الحصى بمقدمة حذائها، إنها تصرخ على الربوة.

سالي: ها هم الأولاد يبولون فوق الأنقاض، وتركض الفئران بين الجدران، ولا من دخان يتصاعد ولا من أصوات.

الأم: ها هم قد جاءوا يا أحمد، إن الجرس قد ارتفع.. إنني

---

(1) أو أتصفح في كتاب التاريخ الكبير الذي يخص وضاح.

أسمع صوته وأتحسس صداه، وأراه وهو يقف على الدرج وينادي وها هم قد جاءوا من كل صوب، قدموا من الأطراف البعيدة ومن وسط المدينة، من الشمال والجنوب، من الشرق والغرب، إنهم يقتربون، ها هم يتفرسون في ملامحه، يتحسسون الأخاديد، يعدون الأمتار، إنهم يا وضاح هنا، لا لن أدع لهم المشابك الملونة التي أرسلها علي، لن أدعهم يأخذون الستائر التي دميت في رتقها أصابعي، لا تدعهم يحملون الصورة[1]، إنني أميل على يدي، أميل على يدي، أميل على يدي.

علي: ها هى ذي الأضواء تنطفئ على جانبى الطريق، أشعة العربات الآتية بالأبيض، والذاهبة بالأحمر، أفتح الراديو محاولًا أن أستمع إلى نشرة الأحوال (وأنا أميل بجانبي على الصحيفة المستلقية على الفراش)، ليس هناك سوى تلك الأصوات.

(باب / ز / 2)

(كانت الغمامة التي كونتها الأتربة قد تكاثفت من حوله، ونشرت الأشعة الباهتة نسيجها على جوانبه. كانت الستائر قد طويت، والأبواب قد تحركت، وقد بدا الآن خاليًا إلا من تلك الأصوات: هبات الريح في الصفائح المستلقية بين الحجارة، وخربشة الأوراق في الحفر، ورنات الزجاج المحطم، وقرقعة

(1) صورة الجد.

الخشب، وكل ذلك بدا منذرًا بوقوع الكارثة:

ها هو ذا الدلّال المنادي يمسك بالجرس، يردد العبارة[1] حيث يتكاثر التجار، من كل صوب. لقد جاؤوا، من هنا وهناك، ووقفوا حوله، وتجولوا داخله[2] لقد مضوا في جميع الاتجاهات، ونظروا إلى البيت المجاور، وتحسسوا أضلعه، ومواسيره، وعدوا السقالات، والحجارة، والأبواب، والشبابيك، بلاطة بلاطة، وقطعة من النحاس وقطعة من الحديد، ومشوا خطوة خطوة بالمتر والذراع والبوصة.. ثم مضوا يهمسون لبعضهم في افتعال وخيلاء.

والجرس يرتفع عاليًا ويجلجل في يد الدلال، وصوته ينادي، وهم يبدأون المزاد بالعد، أولئك الذين قدموا من كل صوب، بالرقم الأخير.

(لقد بدا لهما بخسًا ومحزنًا ومخجلًا وهما يقفان بعيدًا بجوار الشجرة).

وقد بدا لها الأمر أقسى مما يحتمل، فتحركت، وتمددت، وتثاءبت، وانخرطت في البكاء، وكان هذا هو صوت الغرفة المنتظر: الصوت المتقطع الرتيب)

---

(1) ألا أونا. ألا دوا. ألا تريو.

(2) وهم يرفعون أيديهم إلى أعينهم.

(فصل 14)

الأب: رأيتك يا وضاح وأنت تنظر شذرًا إلى الأفق، رأيتك تحمل حقيبتك وتنظر إلى العربات، رأيتك تبحث عن مكان في القطار الذاهب إلى الأقاصي، رأيتك تتصنع السير دون انفعال، وأنت يا سمراء كنت تفكين الأربطة عن ذراعك وتحدثين قطتك، وأنت[1] كنت تطوين الملاءات وتملأين بها الصناديق، هيا بنا إذن.

صيام: إننا ذاهبون إلى القلعة في العربات المشحونة بالأسرة والصناديق، إنني أحمل الكراريس والخرائط، سالي تحمل الحقائب الملونة، وسمراء ما تزال تحاول فك الأربطة، وأمي تنصت من النافذة الصغيرة.

وضاح: جاءتني جواميس في منامي، حلت عقالها ووضعتها على حافة النافذة، أخذت أضرب ببصري في المدى الأزرق، أفك الرباط، أحاول الخروج من الخيمة وأصوات الريح تغدو وتصفر، وأطارد خواطري حتى تأتي الجمل متآكلة الأطراف، أمد يدي إلى غصن الشجرة في الرمال، أتابع عد أعمدة التليفون محاولًا الاستماع إلى المحادثة، لقد دقت الأجراس، دقت الأجراس، دقت الأجراس.

---

(1) الأم.

علي: رفعت وجهي ونظرت إلى اصفرارها، وأغلقت النافذة وعدت للنوم، لم أستطع النوم، لقد تحرك صوت الساعة، ودقت الأجراس.

وضاح: كيف يمكن لي أن أعود لأحط قدمي على الرمال، وأسمع صوت الريح دون أن أهتز، ها هو ذا سرب النمل يقترب من أصابعي، يتسلقها، يتابع حركته بلا كلل، أحاول مرة أخرى أن أتقدم إلى الأمام بأفكاري، أنزوي في نهاية العالم مع الكتب التي حكت الأخبار والأسفار، أدخل في جدل عقيم مع كل شخص على حدة، وأتركه، ويأتيني الصداع مرة أخرى (هذا هو اسمي).

سالي: أخذت أمشي وأمشي من شجرة إلى شجرة على شاطئ النيل وعند المنحنى كانت عربة الإسعاف تنهب الطريق وتدق الجرس.

الأم: من لي بمن يرفع الأغطية، من لي بمن يدس يده تحت الكنبة ويخرج لي جواربي الصوفية، ها أنذا في الردهة محاولة أن ألملم بقايا زجاج المصباح الذي سقط عند الهزة الأخيرة في وسط الردهة.

سمراء: إنني أراكم هناك، جميعكم، أبي بجوار أمي، صيام بجوار وضاح، وسالي تقف في الوسط. «علي» أيضًا كان هناك، وكانوا يقفون منتظرين أن يتوقف الجرس.

وضاح: كيف يمكنني إذن أن أقدم حلولًا في هذا اللغط، كيف

يمكن أن أضع طبق الطعام على المائدة، هذه هي الحيوانات تخرج مرة أخرى وأنا لا أستطيع أن أمد يدي إلى الزمزمية في ظل الضوء الباهت، حتى لأتجرع قطرات من الماء لكنني صببت قليلاً منه على صدري، وعدت للنوم، تركت عيني اليسرى مفتوحة: ها هم يأتون مرة أخرى يحملون البقايا في السلال على رؤوسهم. لقد جمعت سمراء كل المسامير، جمع صيام كل الزجاج، أمي جمعت بقايا السقالات من الردهة، أبي حمل على رأسه إطارات الصور، أما سالي فقد جرت الساعة الخشبية بحبل وأخذت تمشي على طريق مرصوف بالحجارة، وكان عليَّ أن أحمل لهم الفراش والغطاء. لقد عاد... المنتصب للراحة.

الأب: أصوات البراميل، انظروا، أنصتوا.. أصوات البراميل.

الأم: سقطت أشعة الشمس على وجهي فتوقعت صوت الجرس، ها هو ذا يجلجل خلفنا ونحن نسير في اتجاه الطريق الطالع إلى أعلى.

(باب / س / 1)

(كان الظل الشمالي قد اتسع وقد مال الجانب الأيسر وغطى جانب الطريق، وبدت النوافذ كفتحات أحدثتها الدانات في المساء، وتدلت الجوانب السفلية ونشعت بالماء وبالرطوبة، أما

الشجرة الكبيرة القائمة في الوسط فقد هزتها الريح وتدلت من على غصنها الطالع ناحية الشرق خرقة بالية.. وكان هناك ما يزال على حبل الغسيل - الممتد ين الشجرة والمسمار - منديل منسي يرفرف مع حركة الريح.

كانت المثلثات المتوالية من الجانب الغربي قد غطتها الأتربة، وبدت بقعة (من الملاط الداكن) تحيط بالنافذة المدورة، فوق قوس المدخل.

الآن.. كانت الطيور قد تآلفت في أزواج اتخذت الفتحات القديمة (بين السقالات والأحجار) بيوتًا وأعشاشًا: تقاسمتها طيور الليل وطيور النهار.

الآن.. كانت كل الحكايات قد اندثرت، كل الأقوال قد تلاشت، كل الوثائق والقراطيس، كلها، بعُد بها العهد، وانتهت الأيام: حيث ترددت دقات الطبول، وأصوات الآنية النحاسية الكبيرة فوق النار).

(فصل / 15 / أ)

الأم: إنني تواقة بالفعل لأن أتحرك بهدوء وسط كل هذا الضجيج، أحاول أن أرفع قدمًا وراء الأخرى وأنا أحس بهما وأحاول، لكنني أنسى، أنسى كل ذلك وغيره وأحاول المضي إلى... ماذا؟. حتى

النهاية، ها أنذا أنتهي من الأمر بسهولة كمن اختار ميتته وهو يحاول (يرفع قدميه ويديه عاليًا على حصير الردهة) وهنا: عند هذه النقطة يتساوى كل شيء حتى ولو دقت الأجراس، لو دقت الأجراس، لو دقت وحملنا أشياءنا ورحلنا، فإن ذلك سيكون مؤثرًا للغاية، ولا بد من مخرج سينمائي عندئذ، لا بد لمخرج حاذق من أن يتدخل، حتى ولو رأى البعض في الأمر مبالغة، لكن، من يستطيع أن يوقف رجلًا أحمق كهذا، ما أن يرى التجار حتى يبدأ في هز الأيدي والأكف، ويبدأ في اللامبالاة بنا ويوجه جل نظراته إليهم. (أولئك التجار) ينظر لهم بالفعل ولا يلتفت لأحد منا، لا سالي ولا سمراء ولا صيام، أو أي شخص آخر، حتى وضاح، و.. لم يفكر لحظة في علي، وربما لا يعرف أنه كان ضمن من خرجوا وركبوا الباخرة الكبيرة، ولم يهتز له جفن عند سماع صوتها العالي «بوق. بوق. بوق» وهي تتحرك وتختفي ونحن[1] نتحرك أيضًا، لكننا ننظر لبعضنا قبل أن نختفي على صوت البواخر، لكن، كان ذلك مضحكًا بالفعل، تلك الأم الريفية أخذت تلوح وهي تقف وتجلس وتلوح حتى شقت ثوبها، قالت أشياء –تلك المرأة الريفية– والزبد يرغي في فمها وهي تنظر من العصور والأيام داخلها إلى البحر وإلى الأمواج، وتتابع الصدى الذي قد هزها بالريح –تلك المرأة– من خيالها حيث لم يكن الخلخال في قدميها، وكان على البحارة

(1) كل الواقفين في الميناء.

–بعدئذ– أن يلموا الحبال، ويرفعوا المشايات، ويعيدوا الرصيف إلى حاله، قبل أن تقف البواخر في الضوء الخفيف، فعلًا، ها هو ذا الضوء الخفيف من النافذة، وصوت ذكر الحمام، وصياح ديك.. صياح يرفرف في قفص مغلق من الجريد، إذن علي أن أستيقظ جيدًا، نعم، وعليَّ أيضًا أن أملأ الصناديق.

(فصل / 15 / ب)

صيام: ها نحن الآن نبدأ الحفر في الأرض وفي الحجارة، والبروفيسور «محمود» يمد الخيوط ويضع ملاحظاته في الأركان، تضحك «إكرام» وتنقل الحجر الصغير مرة أخرى جهة الشمال: حيث تتراقص الأضواء على مرايا البرك المنتشرة حول المعسكر.. ها هي الطيور حائرة، تحط على النخيل، وتحوم في الفراغ، تنشر أجنحتها البنية، وتندس، وتختفي داخل القرص الملتهب، وها هم ينتشرون، عبر البراري الممتدة يتطلعون إلى الأرض، يحدقون حولهم، ويتحدثون في صمت (كل مع نفسه)، لا بد أن نصل إلى شيء في الموضوع، عندما ظهرت صخرة غريبة بدأ الأمل، بدأت الرغبة في المضي قدمًا لمزيد من الحفر، ها نحن نبدأ في وضع المعاول على رؤوسنا من أجل البحث عن البقايا، قطعة حجر هنا، وصخرة هناك، ويمضي الأمر (كل ذلك من أجل التاريخ) نتجمع

حول «الكشف» وننتظر الذين يدقون حوله برفق، ويقول أحدنا: «ها هى بداية الخيط، ها نحن بدأنا، ها نحن نتقدم، انظروا، لقد حققنا نصرًا..» ثم يعجز عن إكمال العبارة، فتضحك إكرام مرة أخرى، وتنطق بجملة سريعة تصطدم الآذان بها، ثم يعود كل منا إلى التفكير: «أين يا ترى كان؟..» أحاول الهرب، أحاول الهرب، أحاول الهرب، الحجارة هناك، السقالات، الحفر، الملاط المتساقط والكتابات الجدارية، وصوت تلك الأنثى المنطلق في جملة غامضة، لكنني أعود للجلوس على حافة الصخرة –أو السرير النقال– وأعاود النظر إلى كل تلك المرايا المرتعشة على سطح البرك المتناثرة في البرية، إلى كل تلك الطيور، وذلك النخيل المتمايل تحتها، وشجيرات التين، والنباتات الشوكية، كل تلك الطيور النحيلة، والنخيل الذي تحتها، وشجيرات التين والنباتات الشوكية، كل تلك الطيور، والأشواك، والحفر، والمرايا المرتعشة على سطح البرك في البرية، كل ذلك الهرب، والسقالات، والملاط المتساقط، والكتابات الجدارية، والصوت المتكسر على الحجارة، والنمل الأبيض (الذي يزحف على أصابعي)، وبراميل الزيت، والأصوات، الأصوات الآتية من خلف الجدار، ها أنذا أركض خلف الكرة على النجيل الأخضر، وأتسلى بحبات الفشار وأنا أجلس على حافة السور وأتابع سيقان الفتيات، وعندما أجدهم يتجمعون، أركض بعيدًا بعيدًا أحاول الهرب، والريح تصفر تحت قدمي على النجيل الأزرق.

(فصل 15 / ج)

سالي: أضع كفي على الجانب الأيمن من ساقي الملتهبة، تأخذني الإغماءة بهدوء إلى السرادق المنصوب على الربوة، ترتعش روحي قليلًا وأنا أقطف زهرة عباد الشمس الصفراء تحت الأشعة الذهبية، ها هي ذي شجيرات الخروع تمتد على امتداد النظر قبل أن تنادي سمراء: ألا تودين اللحاق بي؟ ألا تريدين حتى أن تسيري بجواري؟.. هيا بنا نلحق بهم..»، تركتها في لحظة خيانة من النوع الذي يرتبط دائما بـ «عدم الرغبة»، لم أكن أريد الآخر[1] وخفت أن تستمر نظراتي مع فتاها، قلت لها «ألا تستطيعين أن تفعلي ذلك لوحدك، إنني لا أريد أن»، بكت سمراء ساعتها، قالت: إن استمراري مع صلاح[2] يتوقف على استمرارك مع صديقه، إنني لا أستطيع الخروج بمفردي يا سالي، أنت تعرفين الغضب والرغبة في تدميرنا، بالفعل، كانت هذه الأحاسيس دائما هناك في صندوق الردهة، مع الأحجبة والتعاويذ، (تحت ساعة الحائط الخشبية وبجوار الكنبة) أخذت أهز صدري مرات وأنا أتابع

---

(1) كان اسمه علي.

(2) هكذا كان اسمه.

النجوم، أستمع لحكايته مع تلك التي قال عنها: «كانت الأولى»، كيف يمكنني إذن أن أجلس على الحشائش؟ كيف يمكنني أن أجد طعمًا للسندوتش؟ أو حبات الترمس[1] سألني أن أقترب فاقترحت أن نجلس على المقعد الحجري بالقرب من الشجرة، كانت ساقاي تشتعلان بنظراته، وانتهى الأمر بإغماءة من نوع آخر، متى كان ذلك؟ هذه هي اللحظات البعيدة تتفجر من أصابعي[2] يأخذني الظل على جانب المرآة وأنا أستند إلى الجانب الأيسر، ها هو ذا صوت أبي قافزًا عبر الستائر، وضحكة انفجرت مع إغلاق الباب خلف البارفان، إنني أنتظر النداء عبر الآلة دون أن أستطيع التمادي مع الفكرة، كيف يمكن للصوت المكتوم أن ينسدل على جانب الشرفة، ها هي ذي الزوجة الشابة تنشر قمصان نومها الزرقاء على الحبال الملونة، تهز شعرها المنسدل على جانب وجهها الأيمن الناعم، تدق الساعة مع خطوات عم محمد الآتي وهو يقول "ألا زلنا هنا؟ ألم ينته الوقت؟" كان هذا الرجل يخفي كواكب تحت عباراته الغامضة، في الصيف الماضي قال فجأة: "ألن ينتهي الأمر، أليس هناك خاتمة لهذه الحكاية؟" أخذ يشد على قبضة الباب ويردد "يا فتاتي الصغيرة يا فتاتي" ينظر عبر شق الباب – وهو جالس على مقعده في الممر الخارجي– ويقول: "أما زال.. كما هو. ألم.." ثم

(1) أو اللب الأبيض والكوكاكولا.

(2) وأنا أمد يدي السمراء على زجاج المكتب.

يختفي بوجهه المجعد خلف نظاراته، ها هي لحظة مضت وقد أحسست بالدم يتوقف في ساقي اليمنى، لا بد أنه طول الجلوس، لا بد أنه شيء آخر، خيوط الدم تنزل عبر أذني إلى الأسفل، عليَّ أن أحمل حقيبتي وأذهب إلى التواليت، لعلني لم أنس كيس القطن ولعلني، هل هذا الموعد بالضبط أو أن التاريخ قد تغير مرة أخرى، هكذا دائما تتبدل الأوقات مع دخول الخريف، آه، نحن على أبواب الخماسين، ربما تكون الآن هنا، أعني، لا يجب أن أتابع الحلقات في "حواء" فالأمر أكثر بساطة، ماذا سأقول له عندئذ مساء الغد، أشعر بأنه شيء آخر عندما يرى الحلقات حول عيني[1]، إن الأمر -فيما يخصني- واضح للغاية (أليس ذلك نبلًا من نوع خاص؟) أم هي تلك الفضيحة التي تتضح بمجرد أن تتحرك الحقيقة؟ صوت أم كلثوم ينبعث من بعيد، ما الذي يذكرني به ذلك الصوت؟ السهرات الهادئة في الردهة(!) قبل أن يدهمنا ذلك الذي..؟ أم أي شيء آخر؟ ها هو المدير ينادي، صوته يقف في المسافة بين الآلة الجالسة بجوار التليفون وحجم المأساة المتربعة على حجر التمثال الصغير[2] ها هو وجهه أيضًا، أعود محملة بالطلبات كالزكيبة الممتلئة بالقش، وعندما أغلقت الباب شعرت برغبة في أن أهز ردفي، وأنا أذكر الآن ليالي الزار: (أو إقامة ليلة

(1) عندما يأتي الميعاد الشهري تزرق الدوائر حولهما.

(2) ذلك الذي أهدانيه وضاح في عيد ميلادي الأخير.

حتى الصباح) يوم انشقت الأثواب.. يوم تناثرت خصلات الشعر في رقصة الماء، (تعالوا لتروا تلك الأيام) هل يمكنني الهرب بعيدًا، إلى تلك المنطقة التي تهتز فيها الأشياء، إلى ذلك الحبل المترامي، إلى تلك الأغصان التي ترفرف على الشواطئ، ها أنذا أركض إلى المدى الذي... هناك الجرس.

(فصل 15 / د)

وضاح: سأضع قلبي في خطاب وأرسله إلى رئيس القسم، سأعود إلى الوثائق الدامغة بأن المراحل التي مرت. كل تلك السنين منذ قمبيز، وحتى هذه اللحظة التي أقف فيها خارج خيمة الاجتماع، كل هذا الزمن كان للتدليل على الحقيقة التي انتهى إليها موقف الأسرة[1] لحظة أن سقط آخر ضلع من السقف المنقوش، وأن تلك الكلمات التى عثر عليها أخصائي الآثار في أسرتنا[2]. كانت بهذه اللغة. إنني ذاهب من هنا إلى دار الكتب لأعد المراجع والوثائق التي تحدثت عن كل الغزاة والحكام وسأثبت[3] أن التاريخ كان مزورًا (منذ تلك الحلقة) وأن أي حديث آخر ما هو إلا محض

(1) لحظة أن ارتفع صوت الجرس.

(2) أعني صيام.

(3) لكم.

ما أسمته المرأة المؤسسة لعلم الحكمة في وادي النيل[1] "حلاوة الروح" إن المسألة تتلخص في هذا البعد المتنامي خلف الجبال، سأمضي هناك خلف عيون البوليس الحربي وأتقصى المسألة دون معونة من الآلات الواقفة على الشعاب المقدسة، سأنطلق لأعود وأنا أمسك بحبات الرمال الزرقاء التي خلفتها المعركة (ما زالت تدوي) ها هو ذا "سلمان" يتابع الطيور ثم يعود ليدق بقدمه على الحجر، ها هم الأعداء يتلصصون علينا عبر النظارات المكبرة ثم يتحركون للوراء، إلى حيث موقعة النار يوم انصب اللهب على الحديد المجنزر والزيت والخيام ولحوم البشر، كانت الصحراء تشتعل بضوء المدافع، وكان أن ابتعدوا عني، (عبر الزمن الذي عبروه معي): كل من خليل وأحمد وقاسم. تلك اللحظة، لم يكن الأمر يحتمل أن تحاول ترويض ذاكرتك الرتيبة، هذا الصاحب ذو الوجه المجعد، الحاد النظرات، الآتي من الأقاصي، أو من الدلتا، لن تراه مرة أخرى عبر الحروب والدول والأيام، ها أنذا أتابع السحابة التي التوت تحت الجرف المنحوت على هيئة وجه صياد عجوز، حيث كان الكروان، قبل أن يهبط النهار وترتفع الظلال – يقف ويحدث صوتًا عاليًا، ولم تكن الخيام قد خلت بعد من أصوات التراتيل، ها أنا آت مرة أخرى، إنني أقف على عتبة البيت التي تدحرجت مع الأحجار، مع الأخشاب المنحوتة، مُزَق

---

(1) وكان هذا زمن الأسرة الثامنة عشرة.

السقف التي هوت على أضلع القطة، ها أنذا أفكر في العودة لك يا "سونا" أفكر أن أعود إليك تحت كل الشروط، سأقبل أن آخذك مساء الخميس إلى السينما لنرى "نجلاء فتحي"، سأغني معك "نار يا حبيبي" سأرتدي البيجامة المخططة وسأحب قميص نومك الأحمر الفاقع، ولن أتقزز من المساحيق التي تضعينها على وجهك، ولا الروج، ولا البروش، كل ذلك سأعود به من الجبهة كجندي يدعو للوحدة الوطنية، لكن. كيف لي أن أتحمل رفع الأنقاض، ما الذي يمكنني فعله عند الخرائب، إنني أقف حاملاً عصاة بجوار السور لأمنع الأولاد من التبول، غير مصغ للبروجي وهو يدوي بنوبة الصحيان، غير مندهش من تلك الأصوات التي تحدثها الخيام مع الريح، عندما تزمجر الجبال مع الشعاب، كل تلك الألوان، الخطوط الباهتة مع تغير الوقت تتبادل الإيقاع، والكثبان المتحركة تغطي وجه الجرف المنحدر، تلك الطيور، إن أحدًا لا يستطيع أن يقنعني بعد اليوم بالعودة إلى الأيام الماضية، يوم كنت أجلس على حافة الشاطئ أفكر لو أن الوقت قد جاء لأحقق خطة محكمة خصصت لها دفترًا أنيقًا من دفاتري المدرسية، وكان المصباح هو شاهدي الوحيد في تلك الأمسيات المتوحدة، كنت قد انضممت في الحادية عشرة لفريق الكشافة، ووجدت أنه من الأفضل أن أكون مؤرخًا، فتناولت القلم وبدأت في كتابة أول فصل من البداية الأولى لاهتزاز الجدران، يومها، أحببت أن أختبر

ما يفكر فيه أبي، سألته، وهو يجلس على الكنبة الخضراء في الردهة، تحت النتيجة الورقية بجوار الحائط، فاهتزت يده وهو يحاول الابتسام، كنت متأكدًا أنه يعرف كل شيء، كل حركة جديدة تدب في الأوصال كان يحسها، كان قد كبر. قد مضت عليه المتاعب، قد مرت عليه الأيام، وكان ضغطه المنخفض قد جعله في حالة خوف دائم من الغيبوبة، عندما قال: "انتظر. لماذا لا تنتظر حتى تمر أيامنا الصعبة"، تركته وعدت إلى دفاتري، جاء مهرولًا إلى الغرفة وقال: "لا تظن أن الأمر يخصنا، تعال معي إلى المقهى لتسمع كل الحكايات[1]" بالطبع لم أكن أريد أن أسمع أي حكايات، كان الأمر قد انتهى بالنسبة لي، وأخذت أدرب نفسي على أن أكون باردًا كلوح من المعدن، أخذت أدرب نفسي، أعني أخذت أمشي في الحديقة الفرعونية بجوار البرج، أجلس عند كل تمثال خمس دقائق، ودفتري في يدي، حتى، عندما كنت أذهب لاصطياد الضفادع عل حافة النيل تحت كوبري الجلاء أو عندها أذهب إلى حديقة الأورمان مسلحًا بسلة لصيد الفراشات، كان دفتري في يدي، وكانت اللحظة تأتي لأدع فيها كل شيء، وأقف لأفكر، فأجد أن الأمور قد أفلتت من أيدينا، سيأتي من هم أكثر قدرة على حمل السقالات، يأتون وهم يصرخون في السماء الزرقاء، أيد كثيرة وأرجل راكضة عبر العنابر والسراديب، لقد فات الوقت علينا إذن

(1) قال هذا بصوت مرتفع.

يا "سونا"، لن نتمكن من إعداد عشنا[1] ولن يعود أمامنا إلا أن نختار، يدك تلك البيضاء يوم وضعتها على يدي، أخذتني غفوة وأنا ممدد على العشب، كانت سمراء هناك تحفر حفرة في الرمل المبلل في ممشى الحديقة وكان صيام يبحث عن الحشرات الغريبة في الأركان تحت حبل الغسيل، وسالي تركض خلف القطة، كان أبي، (وهو الوحيد الذي يرتدي النظارات في عائلتنا) جالسًا، بجواره المذياع على الطاولة، يشرب فنجان القهوة منتظرًا صاحبه ليلعبا الدومينو. وكانت أمي –التي رأيتها من خلف الستائر تنتف رموشها بالملقاط، بعدها كان أبي يأتي إلى البيت كل ظهيرة محملًا بالصحف مشيرًا إلى بعض الأخبار السيئة، وبدأت أمي تترهل، هل تذكرين يا سمراء تلك الأيام؟ لم تكن تلتفت إلى شيء آخر سوى تقليم أظافرها، تلك الفتاة، وكانت أمي تقول: أرجوك يا صيام أن تصبح أكثر رقة مع الفتاتين– إنهما في عمر خطرة يا وضاح – وأنت يا صيام لا تعاكسهما كثيرًا، كانت تدور في البيت وتقول: لقد أصبحتا حساستين للغاية، وكانت تتابعهما وهما تمشيان، «علي» كان غائبًا دائمًا، حتى عندما سافر لم يكن هذا جديدًا، أعني كان الجميع ينتظر ذلك، وقال هو: «أعرف، أعرف بالضبط كل ذلك يا وضاح، فعلام تتأسف...» كنت أقف بجواره على رصيف الميناء، وقلت لأبدأ معه كلامًا مفيدًا، كان ذلك.. نعم، قبل أن يحل الصمت

(1) كما يقولون.

في حجرة الأساتذة، قبل أن يتفشى بينهم ذلك المرض وقبل أن أراك يا «سونا» من خلف البارفان تسيرين في فستانك المشجر بالزهور، تحت خصرك رزمة الكشاكيل، وكنت تمشين بهدوء، وأنا من خلف البارفان أسترق السمع.

(باب / س / 2)

(كان الظل الشمالي قد اتسع وقد مال الجانب الأيسر وغطى جانب الطريق، وبدت النوافذ كفتحات أحدثتها الدانات في المساء، وتدلت الجوانب السفلية ونشعت بالماء وبالرطوبة، أما الشجرة الكبيرة القائمة في الوسط فقد هزتها الريح وتدلت من على غصنها الطالع ناحية الشرق خرقة بالية.. وكان هناك ما يزال على حبل الغسيل -الممتد بين الشجرة والمسمار- منديل منسي يرفرف مع حركة الريح.

كانت المثلثات المتوالية من الجانب الغربي قد غطتها الأتربة، وبدت بقعة من الملاط الداكن تحيط بالنافذة المدورة، فوق قوس المدخل.

الآن.. كانت الطيور قد تآلفت في أزواج اتخذت الفتحات القديمة (بين السقالات والأحجار) بيوتًا وأعشاشًا: تقاسمتها طيور الليل وطيور النهار.

الآن.. كانت كل الحكايات قد اندثرت، كل الأقوال قد تلاشت، كل الوثائق والقراطيس، كلها، بعُد بها العهد، وانتهت الأيام: حيث ترددت دقات الطبول، وأصوات الآنية النحاسية الكبيرة فوق النار).

(فصل / 16 / أ)

علي: تفجرت الفقاعات أمام عيني في الورقة، كانت الأمواج تضرب الصخور وتقف على أقدامها البيض قليلًا وتضحك، ثم تختفي، تضحك، وتختفي، جلست على الحافة وأنا أنتظر العربة التي تقلني إلى هناك، حيث أرى المشهد النهائي من اللعبة، ما الذي انتهى إليه الأمر حقًّا؟. النقود؟ هذه هي أوراق البنكنوت في يدي، وها هو الملل مرة أخرى يعود، لكن يا... لقد جاء موعد العودة إلى العمل، العودة إلى العمل مرة أخرى، بعد أن رأيت الفقاعات أمام عيني، والأمواج تضرب الصخور ثم تضحك، وتلك الحافة التي جلست عليها منتظرًا تلك العربة، وهذا الملل والنقود والعودة إلى العمل، قبل أن ينقشع الأمر، لم تأت الرسالة[1] على الرغم من أن الظهيرة تلهب الأقدام، وما يزال، هذا «الصعيدي»

(1) إنني أتخطى الرصيف.

يصنع الشاي مستعينًا بالموقد وأضلع الصناديق، أطلع، أمشي فوق السقالات المتعارضة فأرى المدى الذي تكلم عنه أبو زيد الهلالي، ذلك الذي قالت سمراء: «إنني أراه في أحلامي»، أبي نفسه كان يقرأ البخت كل صباح في «الأهرام» وهو ينفخ في يده، ويتابعنا في حذر، ويبتسم، ها هو يبتسم، لقد وجد في الصباح ما يدفعه للابتسام، وقال وضاح: «أصبح العجوز في مرحلة الخطر، علينا أن نتتبع ذاكرته»، ضربته سالي بالكوب البلاستيك، واحتبست الضحكة، يا لك من سالي حقًّا، ما الذي حدث؟ كيف صمت الجميع في ذلك الصباح، كيف تحولنا إلى.. بالفعل، أخذ كل منا جانبًا من المكان، وكانت... قد حلت بنا فجأة، ودون مقدمات، هكذا كان الأمر دائمًا (في هذه الحياة القاسية) حتى أننا كنا نظل على هذه الحال أيامًا، أسابيع بطولها ونحن في حالة واحدة ليس الوجوم إلا مظهرها، كان هناك ذلك الـ.. (ما الذي يمكن أن نقول عنه؟) كيف خرجت في الصباح التالي أبحث في مكاتب السفر عن عضوية كاملة في أول فوج من الخارجين، و.. بعض الأشياء –أعني الأحداث– تدفعك للضحك[1]، لقد احتملت كثيرا ذلك التبلد في الوجوه، والأيدي المرتعشة الممدودة، الأيدي الخاطفة، في تلك الأسابيع، حتى قبلت عضوًا كاملًا في الأفواج الضائعة، كان لا بد

(1) كتلة الموجة.

من ذلك: اتخذت صديقًا[1] من الأبناء المهاجرين، وقرأت كثيرًا عن المراكب التي غرقت[2] بحمولتها فيما بين الجزر والقارات و(أصبح لديّ مجموعة كاملة من مطبوعات الشركات الملاحية) أعطيته كرتًا وأخذت عنوانه، عاهدني أن نكون "رفيقي سفر"، أن يعتني كل منا بجثة الآخر إذا ما تحطمت السفينة و.. تعرفون بالطبع، وبالفعل، حجزنا تذكرتين متتاليتين، وقال: "أفضل الأمور جميعًا، هل تعرف، أفضل الأمور أنني لم أخلف شيئًا ورائي، ليس هناك... منذ لاحت بوادر السفر تخلصت من كل شيء بيسر وسهولة"، نعم، لقد احتقن حلقه، وأخذ يبحث عن طبيب السفينة (وهو يركض في اتجاه المطبخ) وتناول طنًّا من أدوية الحساسية، وبعدها، لكن، كان قد توصل إلى أن ينطق بالكلمات، لكن، ما الذي يجعلني أفكر الآن، وأنا أقف على السقالات، في تلك الرحلة؟ هل هو ذلك الدوار (والقيء الذي نفخ بطني) أم الشعور بأنني أهبط بقلبي في غيبوبة، أم تلك الطيور التي هاجمت السفينة بالليل؟ بعثت لي سمراء تقول: "صف لنا مشاعرك وأنت تغادر أرض الوطن" كانت سمراء لطيفة دائمًا معي، كم مرة تركت البيت من أجلها (خضت من أجلها المعارك) ها هي ذي قصبة الصيد خلف الباب، ما تزال الصنارة معلقة في الخيط. والسلة معلقة في

---

(1) نسيت اسمه بمرور الوقت.

(2) والطائرات التي انفجرت.

المسمار، كان صيام يجمع دود الصيد ويمسك بطرف سروالي ونحن نغادر البيت إلى الشاطئ، شاطئ النيل، نجلس على الحجر: ننتظر "بلطية" من الفضة.

(فصل / 16 / ب)

الأب: حيث تصاعدت الأتربة، وسمعت دوي البراميل، أخذت أضرب بأصابعي على جانب المقعد، وأدق على أرضية المتجر المغلفة بطبقة سميكة من القار، وأنا، وأنا، وأنا، أحاول النظر إلى شيء مختلف، تلك الهزات الرقيقة من أغصان الشجرة وأوراقها المكتظة بالريح، تلك اللمسات الفضية فيما بين الستائر والأعمدة، والدرجات الحجرية في المدخل الهادئ، في الصباحات المتوالية، حيث كنت أخطو وأنا أتلفت للشرفات والنوافذ، وأنا أرتدي ملابسي الزاهية متجهًا إلى المقهى، إلى المكان المحدد من الطاولة التي هناك، تحت المرآة اللامعة، وأنا أعرف من سيأتي إلى هناك كل صباح لتناول القهوة قبل الذهاب إلى العمل، قبل المشي تحت الأشجار: حيث تتصاعد الأبخرة خلف عربات الرش التى تجرها البغال في الطرقات، وقد اصطفت عربات الحنطور على جانب، بينما الأزجال تنبعث من أفواه الباعة: باعة الطماطم يغنون، وباعة العرقسوس يضربون بالحلقات النحاسية، وبائعات

الحلبة الخضراء، والجزر الأحمر والودع الأبيض، يطرقن الأكف على الأبواب، وينثرن الملح والشعير والحناء، ها أنذا أفكر مرة أخرى في تلك الصباحات، وأحاول أن أفكر فيما كان يجري في الأماسي، وأنا أخطو عبر الطوار والرصيف، محاولًا تخطي الحفر، أتحسس بأصابعي الدوائر، وأشد بقبضتي على طرف الحبل، وأحرك الجرس، أعاود النظر مرة أخرى وأنا أرتخي على الدرج، وأقلب قطع النقود النحاسية، ثم أتلفت إلى وجه الصبي المرتعش الشفتين، (وأنا أعود للجلوس على المقعد) أضرب بأصابعي، وأدق بقدمي، وأنصت للأصوات وأعاود النظر إلى الحقيقة الماضية، إلى الرغبة التي تجرعتها في صمت مع رشفات القهوة السادة، كل صباح، هناك تحت المرآة اللامعة ومع الأصحاب، حيث مرت كل تلك العربات، ومشيت ومشيت خلف الأشجار، ونظرت ونظرت إل كل الشرفات، وفاتني أن أحقق حلمي الأعرج بالانزواء، (لو لم يكن كل ذلك قد حدث فما الذي كان قد حدث؟) ولو أنني ارتحلت، ولو أنني بقيت، كل ذلك، وها هو صوتها الأجش يعلن أنني رجل الراديو، الرجل الذي توقف على موجة تبعث الفحيح المتفاوت، وأنا أحاول دعوتها إلى طعام في الخارج، إلى الذهاب لنجلس تحت ظل الشجرة الباسقة على الشاطئ، نتمشى بين مقاعد الحديقة ونتابع الفتيان والفتيات وهم في حالة الحب، نتساءل عمن تكون تلك المرتدية فستانها المشجر؟ تلك التي ترتدي الباروكة وتبدو

في منتصف العمر؟ تلك التى تتأبط الكراسات وترتدي المريلة الزرقاء؟ ونتساءل –في هدوء الأيام الأخيرة – عمن كان لنا ومن كان. ثم نفترش النجيل ونتمدد تحت ظل الشجرة الباسقة، أي مخطرف ذلك الولد؟ ما الذي كان يعنيه بأنه "ذاهب إلى رحلة البحث عن الحجارة تحت ظل الشموع، في الظلام الذي يخيم هنا وهناك، عبر الممرات التي يؤدي أحدها إلى الآخر؟" ما الذي كان يعنيه بذلك صيام؟ لعله يعود الآن قبل أن تتورم يدي وأنا أضرب جانب المقعد وتشتعل قدمي وأنا أدق على أرضية المتجر.

(فصل / 16 / ج)

سمراء: أتقلب في الفراش وأنا أشعر بردة فعل التناوم. لكن، سرعان ما يبح صوتي عندما يسألني: كيف الأحوال؟ سأنطلق اليوم مع رجل جديد، لا أريده أن يعيد العبارات وهو يمضغ اللبان، ويلعب في سلسلته الذهبية، سأذهب مع ذلك الفتى الذي يرتدي الجنز[1] أنفق عليه كل ما يحويه كيس نقودي، سآخذه من يده دفعة واحدة – وأطوي تردده تحت الكذب، ألا تذكرني، أليس اسمك هو.. يا الله، أرجو ألا يكون اسمه "جرس" أو "طلاء" أو يعمل مهندسًا، أو يدرس مهندسًا، سأحادثه حتى أقطع أنفاس كل

(1) إنه يقف على الناصية خارج البوتيك.

المحاولات التى تتسرب من المنافذ الصغيرة، سأطاردها – عبر تواصل الأفكار، وأمسك بها بأذيالها واحدة وراء الأخرى – وألقي بها في البالوعة، سأقول له: بأنه ليست هناك أجراس تدق، ولا سقالات تتداعى، ولا ساعة توقفت، ولا أنني ألملم أشيائي وأمشي، ولا من هذا القبيل، سآخذه من يده دفعة واحدة، وأفعل ما يحلو لي ثم أعيده إذا شئت. لن يهمني أن تكون القطيعة في كازينو أو أمام السينما أو على الكورنيش أو في الحديقة، أو حتى هناك، حيث يتلاشى كل شيء فجأة تحت الغطاء الخفيف، تحت الضوء الخفيف، تحت لباس النوم الخفيف، فوق الوسادة البيضاء الناعمة التي أرخي عليها روحي وأرتخي بروحي على بياضها وأرتاح.

(باب / ش)

(ترددت دقات الطبول، واشتعلت الأضواء التي التفت كعقد من الأشعة المتلألئة في خطوط متقاطعة من الأعلى ومن الأسفل، وسمعت[1] على امتداد الطرق المتواصلة وعبر الأبنية المتوالية من حول البيت.. ومنذ عاد الرجال من الجامع، بعد أن أدوا الصلاة (ورائحة الملابس الزاهية تسبقهم إلى الداخل) تحت الظلمة المتبقية من الفجر المنسحب: جلسوا في الغرفة الواسعة.

---

(1) تلك الطبول.

الغرفة الواسعة التي كانت مكان الرجال، ومكان الضيف الغريب، الغرفة التي ما أن انفتح بابها الخارجي - المطل على ساحة الحديقة، والذي كان يقصده الرجال الأغراب - حتى دخل الضيف الزائر وجلس، وما إن يفتح بابها الداخلي - المتصل بالردهة، (حيث تقف البلتكانة الخشبية لتحجب الرؤية من الداخل إلى الخارج[1] حتى كان ذلك يعني دخول رجل (الأب أو الولد الأكبر).

لكنه الآن وقد ارتفعت أصوات الطبول، وتلاشى صوت الجرس وهى تجلس على الكنبة ذات الغطاء الأخضر مبتسمة في الردهة، محدقة في اتجاه الساعة الخشبية، في انتظار، تتوقع منه التغلب على الحياء[2] وعلى تلك النظرة، وحتى على تلك الأحلام التي راودتها طوال اليوم[3]: من الردهة إلى المطبخ فالحمام فالحجرات - حجرة الحريم وحجرة الرجال وحجرات النوم- فالردهة مرة أخرى، وقد تغلبت - وهي تحاول ببطولة - على ألم المفاصل وتلك الأحلام، واستعادت أصوات الطبول: رجال العائلة البواسل في تعاقبهم المستمر - بالشوارب والطرابيش والعمم ثم في سترهم الإفرنجية فيما بعد - وهم

(1) من داخل الغرفة إلى الردهة، ولا تحجب الرؤية من الردهة إلى الغرفة.

(2) بتلك الابتسامة التي وإن بدت بلهاء إلا أنها كانت ابتسامة على كل حال.

(3) وهي تستعد للوقوف والحركة في أرجاء البيت.

يتقدمون واحدًا وراء الآخر - في أيديهم العصي أو النشاشات أو السبح أو الصحف ويحدثون - واحدًا وراء الآخر - ذلك الصوت: الحمحمة التي لا بد منها عند دخول الغرفة (ولكن كان كل ما يشغلها في النهاية أنهم يأتون جميعًا - إلى هذا البيت - الملتف بعقد من الأضواء) وإلى هذه الغرفة - المزينة بالستائر والصور، والثريا الملونة ذات الشموع[1] النازلة في الوسط، وكانت لامعة الآن، في هذا اليوم الذي يشهد الاحتفال[2] - ولم يكن مهمًّا حقيقة أن يكون عيد الأضحى أو رمضان، أو الاحتفال السنوي بالسيدة، أو حتى طهور أحد الأبناء أو البنات - المهم أنه «الاحتفال» الذي تفكر به الآن، وأنها الآن تتحرك بين النساء وتحمل الأواني النحاسية الكبيرة التي أخرجتها منذ الأمس من حجرة الخزين وغسلتها، ووضعتها (فوق النار).

(فصل 17)

صيام: ها هي ذي الظلال تتلاشى، ها هي الخطوط تتضح، أصوات براميل الزيت الفارغة تدوي عبر لحظة من الإنصات والترقب، إنني أحمل على كفي تلك العلامة، العلامة الواعدة التى

(1) التي استبدلت باللمبات الكهربائية على هيئة شموع باكية.

(2) من الداخل.

خطتها الأزمنة المتوالية عبر الأجيال، تدفعني للتفكير في أن أقف على الناصية وأترقب ما يكون دون أن تهتز قدماي، دون أن أتقدم خطوة واحدة قبل تداعي الحسبان، قبل أن أعرف– حقيقة –هل انتهى بنا الأمر – نحن الذين نقف هنا– إلى التخلي عن الخطوة القادمة، الخطوة التي سيكون لها من الدوي ما يصم الآذان، ومن الغبار ما يغشى الأبصار – (هي هكذا) سأقتطع من الطرق الملتوية مساحات من الدهشة، وسأنظر إلى نهاية الحديقة حيث تمتد الأعشاب، حيث ترتد الأصوات مرة أخرى لتسكن الغرف التي جددها الصدى، حيث أرفع قدمًا وأضع الأخرى وأنا أحمل على كاهلي كل تلك الأحلام، (خارجًا إلى حيث الجموع) كل تلك الأحلام التي مرت، عبر الأربع وعشرين ساعة التي مضت دون أن نتقدم خطوة واحدة إلى الحديقة[1] التي تواعدنا عند طرفها القصي، ووقفنا عند المدخل، وجلسنا منهكين[2] على أقرب مقعد حجري، ونظرنا إلى الخلف (وكانت قد حكت لي عن طموحاتها التي استقتها من الوصايا وحكيت لها عما حدث) ثم تراجعنا عبر المدخل وعبرنا البوابة التي كنا قد دخلناها وابتعدنا – حيث كانت هناك شجرة تفصل بيننا – ثم وقفنا مرة أخرى.. لنلوح لبعضنا بأكفنا المفتوحة. (وكان هذا كل ما هنالك) كل ما يمكن أن يكون

---

(1) لا أنا ولا إكرام.

(2) بعد رحلة التنقيب.

قد تحركت به الشفاه ونحن نقف. كل ما تواعدنا به على انفراد، وعندما حكيت لسالي: راحت تهز رأسها وكأنها تعرف النهاية، لكني – الآن – وأنا أمشي ببطء على الطوار المتعرج متجهًا صوب المخدع – أراها هناك: ها هي ذي تحمل على كتفها كل ما فيه ذكراها متجهة صوب الجبل (وخلف القلعة) إنها هناك. تقف برهة لتلتقط الأنفاس وتنظر إلى الخلف، إلى كل تلك المرايا المغبشة من المساحة المرسومة على سطح عينيها الزائغتين، إنني أراها تقف وتطل إلى أعلى، محلولة الشعر، ملطخة الجبين. تبتسم ببلاهة، إنها تركض الآن وتصرخ فوق قمة الجبل، أراها حتى تختفي فأتلفت عن يساري فإذا وضاح يحمل ملازمه ومراجعه –وهو في ملابس الحرب– ويمشي بين المارة، يمشي دون أن يتوقف، وأمي تخرج خلفه منادية، وأبى عليَّ المضي قدمًا في اتجاه الغرفة، لا، ها هو ذا وضاح يقف فوق التل، يحمل مدفعه الرشاش ويطلقه في كل الاتجاهات، لا، هذه هي سالي تمسك بيد حبيبها وتطلع به الدرجات، ها هي ذي سمراء تضحك مع صاحب البوتيك، وأمي تنادي من النافذة، أما أبي فيهز قدمه زامًّا شفتيه محدقًا في الأرض، وأنا أحمل المعول وأضرب بين الحجارة باحثًا عن الأثر الخالد[1]، إنني أطلع –أيها المدى المترامي– عبر المصاعب، أحث الخطى دون أن تلوح نهاية في الأفق، لكنني أطلع

(1) تلك الكتابات المنقوشة على الصخر وفيها الدليل إلى مدخل العالم.

وسأواصل الطلوع حتى إذا جئت خلف الأحلام توقفت، وعريت نفسي وألقيت بها في الخضم المرتفع.

عليَّ إذن أن أعد العدة وأواصل المسير، عليَّ أن أرفع تلك الحجارة وأنقب بين السقالات قبل أن يتزايد اهتزاز قدمي.

لقد مرت الأضواء الباهتة من هنا، وقفزت فوق الأسوار، إنها هناك، إنها تضحك.

تميل النوافذ مع انحناءة الساعة الخشبية وتهتز الأحجار عند الدقات الأولى: ترك. ترك، وأصغي لصوت الحشرات الزاحفة فوق الصفائح – أثناء كان الجميع يغطون في نومهم العميق– وأسمع الأصوات القادمة مع هبة الريح.

إنها الريح إذن، إنها الريح.

تلك التي أخذتني من يدي – عندما جلسنا فوق السور – وأشعلت الأضواء في الغرف بذيلها الذهبي الغزير.

(باب / ص)

(تلاشت الظلال – شيئًا فشيئًا – حتى توارت، وأصبح كل شيء واضحًا – الآن – تحت الضوء الخفيف.

الضوء الخفيف الذي جاء في أعقاب انسحاب الشمس – وتلك الأضواء التى تناثرت – هنا وهناك – من الأعلى والأسفل

أخذت تتبادل الطلوع والغوص في المرآة حتى تتابع الصمت واختفت الأصوات، هكذا، فترة، امتدت وهي تستند برأسها على مسند الكنبة الخضراء - متطلعة - بنصف عينها تجاه الساعة، ثم أغمضت عينيها، وفتحتهما ونظرت هناك: في الركن القصي حيث تجمعت خيوط باهتة أخذت تتماوج مع نفثة الريح التي كانت تتسرب من جانب الضلفة الثابتة.

الضلفة الثابتة التي كانت تخشى أن تغمض عينيها حتى لا تميل، الآن، وقد هدأت كل الأصوات واختفت كل الكلمات ولم يعد عزف الريح ولا ترددات الحوار في الغرف.. الآن: شعرت برغبة متمكنة من الغوص في خفاء بارد وهادئ ومريح، لحظة تتسرب فيها الراحة داخلها، حركت يدها بكفها الى أعلى، أصابعها التي كانت مفتوحة (في كفها) أخذت تلين، ولكن شعرة طارت، وسقطت بين أصابعها: أصابعها التي أخذت تميل).

(فصل / 18أ)

سالي: فتحت كفي وأغلقتها، أسبلت عيوني وتحركت ولكن المقعد كان ثابتًا، هل يمكنني إذن أن أقول الكلمة الأخيرة في الموضوع الحرج؟ ها أنذا عائدة وقلبي يتوقف، أهز حقيبتي مع كتفي وأتمايل داخل الثوب الفضفاض، أشعر بارتعاشة البرد

والرغبة في سكب ماء دافئ على ركبتي، (والمرأة التي تحمل حزمة البرسيم تسير على الطوار الآخر) هل سيمكنني إذن أن ألحق بهم، هل سيمكنني أن أحمل حقيبة ملابسي وأطلع خلفه على الدرج، أم أني سأنطلق إلى المقطم وأطلق صوتي (أنا تلك الثملة) مع شعري والريح؟ أم أنني أعود لأجلس أمام آلتي الكاتبة وأبدأ الدق حتى تذوي الطرقات في الورقة، إنني أخطئ كثيرا لكنني لا أهتم، ما الذي يمكنني أن أفعل الآن، لكن، من يستطيع أن يفسر لي هذا الطالع، على أي الأحوال: إن واضعي البخت في الصحف يخاطبون الرجال، يومًا لم أشعر بأن الأمر يخصني على الإطلاق، تعاودني الرغبة في العودة إليه، أن أعود إليه في هذا المساء الملبد بغبار الخماسين، أو أن أعرض الأمر على وضاح عندما يعود، لا، دعيه مع زوابعه المختلطة بوحشة رمال سيناء، (إن طريقة وضاح في تأمل التاريخ) قال صيام، أف، ما الذي يتقمصني الآن، كيف أبدو على هذه الصورة من تحول قدرتي على التركيز لحظة في الكلمة التي هناك، في رأسي، تلك التي أمامي، رفعت يدي راغبة في أن أدخل إليه صارخة، أشد شعري أو من هذا القبيل أقوم بمسرحية ملؤها الأصوات والدقات، لكن، الهدوء، أفضل، (إن تجنب العواقب هو الذكاء الوحيد في هذا العالم) هكذا قال مدرس الجغرافيا في الدبلوم، (لكن نجمنا يأفل أيها المعلم) ما اسم تلك الفتاة التي قالت ذلك وهي تقضم أظافرها؟ كيف أنساها بهذه السهولة، لقد حان

الموعد، وعليَّ أن أنتهي، سأذهب الليلة في الطرقات وأنا أحدث صوتًا متتابعًا في خطواتي، سأذهب لأتمشى وحيدة على النيل وأتابع الأضواء الصغيرة المتناثرة على سطحه العنابي وسأكتفي بانتظار الرحلة في سبيل البلطية، ها هو ذا «علي» وقد حمل الجرح على يده، مسكين «علي»، قبل أن يفيق من دوار البحر كانت الأخبار تتداعى إليه، قبل أن يدس يده في التراب، قبل أن يعود ليمارس هوايته في صيد الأسماك طوال النهار، إن هذا أمر مضحك، تلك الشجيرات المهوشة التي كان يختفي تحتها وهو يتابع الصنارة، كان عندها قد تغير وهو يقول: «إن الأسماك ترى أيضًا»، وكان يود لو قضى حياته وهو يتابع الحركة الآتية مع البلطية التي كان يحلم بها، لقد أصابتني العدوى، كنت أود –بالأمس– أن أصبغ يدي بالحناء – أن أفعل ذلك، وأربطها بالمنديل، وأنام بها وهي في كفي المضمومة، وأسمع صوت الملاط على الآنية في الليل، قبل أن تأتي الأحلام، وأمي تحدق إليَّ، لن أستطع طلوع الدرجات، إنني أمسك بحقيبتي في مفترق الطرق، في انتظار العربة التي تأخذني بعيدًا، ها أنذا لا يمكنني فعل شيء، سأمضي لأتزوج الليلة، لا، لن أذهب لأتمشى على الكورنيش، لن أتابع إلا هذا وحده، يبدو، ماذا، سأمضي إذن معه، سآتي إليك وارتفع على الدرجات (كالحبل المعلق بالدولاب)، سأشد على يدك وأعطيك كل الكلمات، لن أعاود الذهاب إلى دروس الفرنسية، سأنهي الأمر عند هذا الحد، سأصبح

أمَّا وأرضع أطفالي وأغسل غياراتهم، (هذه هي الأرانب تداعب قدمي) سأجلس طوال نهاري في المطبخ وأعد لهم الحلوى والمحشي بالكرنب والقوطة، سأتابع باب طبق اليوم في «الأهرام»، سأخترع لزوجي أطباقًا جديدة وأخيط أزرار قمصانه وأبتسم، سأقف خلف الباب عندما يعود، سأنتظرك وأسخن لك الماء لتضع فيه قدميك بعد مشوارك المرهق طوال اليوم، سأستوعب ماءك في أحشائي أنجب لك كل عام، مادمت تحب الأطفال سأكون أرضك المزهرة في المواسم، لن أترك خريفًا أو ربيعًا إلا وأنجب لك فيه ولدًا جديدًا، سأحتفظ بكتالوج «الأم الحامل» لأفصِّل على منواله ملابسي في شهور الحمل الأخيرة، سنذهب معًا إلى أهلك كل جمعة ومعنا «السبت» وفيه الهدايا، إنني أصدقك بأنك تستطيع أن تشق طريقك في هذه الحياة التي لم تعد محتملة، أقدر فيك رغبتك في أن أقف في طوابير السمك أمام الجمعية، لن يقهرني النسوة وهن يتزاحمن على اللحم المجمد الآتي من أمريكا خصيصًا لميدان السيدة زينب، وسأذهب من جمعية إلى أخرى أجمع الغداء، لن أهتم بالزحام في الأسواق، سأمد يدي –أنا أيضًا– وأظفر بالانتصارات التي كانت من نصيب الجميع، وماذا لو نشر الخبر في صفحة الحوادث المؤسفة، سأنسى طبعًا منظر الغبار وهو يتصاعد من الأحجار والأخشاب، لن أهتم بجمع أشلاء الدواليب وقطع القماش التي جمعتها طوال عذريتي، سيمكننا أن نعوِّض ذلك على الرغم من كل شيء، حتى

ولو مضى الوقت على اللحظات الحرجة في الموضوع دون أن يترك آثاره، وسيكون بالإمكان أن نلجأ إليه بطريقة من الطرق، هذا هو ألم الدم، عليَّ أن أركض إلى دورة المياه.. لزوجة المياه، لزوجة السائل الدافئ على فخذي، تلك المرآة، جانب وجهي، المهم أن نفلت، صوت الباب يفتح، إنها يدي تتحرك في الهواء، وأنا أطل على المدينة، تلك الغمامة. تلك الغمامة، تلك الغمامة، صوت الجرس مرة أخرى.. إنها يدي إذن، يسيل الماء دفعة واحدة.

(باب/ ض)

(كانت النوافذ مشرعة وقد تدلت خلفها الستائر وتلك الحركة الهادئة للظلال (وهي تدور حوله ببطء) ترتفع وتهبط، تخفي خلفها الأصوات المتناثرة على الجدران والمفارش، تدس صوت الجرس تحت الأغطية المشبعة برائحة العرق على امتداد الأعوام، وذلك الفانوس المغبش بالسماج يتصاعد غباره في خيوط تنسحب إلى ركن الردهة خلف باب الممشى المؤدي إلى الحمام، حيث تصاعد صوت المدق النحاسي وهي تجلس على المقعد الخشبي القصير مؤرجحة قدميها بينما حبات الملح تقفز من بين أصابعها وقد تصببت بالعرق، كان التعب قد أصابها فأخذت الدقات تخفت وتتباعد: تك. ترك. تر. تك، ثم مالت

برقبتها على ضلفة الباب، بينما كان منديلها الأسود قد التوى من فوق رأسها إلى جانب وجهها وكتفها، (وقد تصببت بالعرق فأغمضت عينيها، وكانت اليد النحاسية في كفها الضعيفة ما تزال).

(فصل 19)

الأب: عندما قلت لها «تعالي» خشيت أن تكون كلمتي الأخيرة، كانت أصابعها باردة كتلك البراميل، أخذت أهز نشاشتي طاردًا تلك الأتربة، وأنا أسير في الطرقات، عبر الحجارة والأخشاب إلى تلك الغرفة، نعم، خشيت أن تكون كلمتي الأخيرة، لكن ها هي الأجراس (الأصوات مرة أخرى) لا، من الأفضل أن أتابع الأمور المتعاقبة كما يمليه عليَّ الواجب، عليَّ أن أكف عن الدق على جانب المقعد بأصابعي، عليَّ أن أكف عن حركة قدمي، عليَّ أن أتحرك في الردهة بالطريقة التي تليق برجل مهتم بزمنه الأخير، يخرج حاملًا ساعة الحائط لإصلاحها، يأتي بالنجارين ليرفعوا السقالات ويدقوا المسامير هناك، في يده فرشاته الضخمة، صفائح الألوان بين قدميه، يمشي ولا يكف عن المشي، يحدق جيدًا[1] في اتجاه ارتسمت عليه الظلال، وبانت التلال، يحاول أن ينسى

(1) عبر الضوء الخفيف.

ابنته على قمة الجبل، ويتدارك الأمر قبل أن تتجه السفينة إلى جزر الأعشاب، قبل أن تكف قدماه عن الحركة، قبل أن يلتفت إلى الأصوات المفاجئة خلف الجدار، ويذهب ليحدث نفسه، بأي شيء يتكلم ذلك الشيخ؟ بأي حركة تأتي يده؟ كيف يكون في بيجامته المخططة؟[1] بم يشعر وهو يرشف القهوة في الصباح؟ بم يتحدث عندما تنطفئ الأنوار في غرفته؟ كيف يكون صوت الريح في أذنيه؟ هل ستأتيه دقات الساعة من الردهة؟ أم أن شيئًا آخر -بالفعل- سيقوده إلى طرق تنتهي بالإشارات والأضواء؟ في مدينة مكتظة يقف في نهايتها مناديًا (أنتم يا من هناك) أستيقظ صباحًا على المذياع، ونام على عربات النقل، نسي أن يعلق صورة له بين الرجال، ورفع يده إلى جبهته[2] أي شيء يتحسس، وكيف يمد يده لمساعدة المرأة الحامل على الطوار، هذه هي إذن، إنها تجلس في الردهة، إنها تجلس خلف الآلة الكاتبة، تحدق عبر الزجاج إلى الخارج، ترتق الملابس على صوت الإبر، تتحدث بلكنة البوتيك وعندما تأتي إلى الردهة: تلقي حقيبتها وتصمت. ما الذي يجعلني في نهاية الأمر مجبرًا على طرقعة أصابعي، لقد كففت -منذ أن مرت المواكب- عن النظر خارج الدكان، وخلت أنني -سأستطيع معايشة البراميل، هذا هو وضاح خارجًا يحمل بقاياي، مرتكبًا حماقته وهو يهذي، إنني

---

(1) أو خلف البنك في متجره أو المقهى.

(2) فجأة.

أعد قطع النقود دون أن أفهم شيئًا، دون أن أبلغ الرقم الأخير، هكذا إذن تأتي النهاية. هذه يدي من تحت الأصوات.

(فصل ط)

(تجمعت السحب المتفرقة في سحابة كبيرة فاختفت الشمس، تلاشت الأصوات في الغرف وبين الأركان فتأخر الوقت، تسلل صوت المغنية باللحن التركي بين الأرجاء، كان ضوء المصباح الخفيف الأصفر ينتشر على الأشياء والجدران: يعكس ظلالًا هادئة توحي بالنعاس، خرير الشاي من فوهة البكرج الصيني المنقوش، الفوهة المائلة، في الأكواب الرفيعة المحلاة بدوائر ذهبية، من البكرج المستطيل وصوت المغنية في الضوء الأصفر الخفيف في الردهة مع رائحة النعناع ودخان الشيشة وصوتها والخشوع، الكلمات المتبادلة بين الكلمة والكلمة، رشفة من الشاي المعطر بالعنبر، حركة الماء في جوف الشيشة الزجاجي (صندوق أصوات سحرية) صليل الهون النحاسي. ضربات المنجل المنتظمة. تك. ترك. ترك، على حافة الطست النحاسي ورائحة الدقيق، حشرجة وابور الجاز والبخار في الحمام، شخير الأب في الليل، ضربات القبقاب على البلاط، الدفء الآتي من موقد الفحم في الشتاء، أبو فروة، كل ذلك ومرة

أخرى: ذلك اللحن الناعس، دخان بخور الصندل المحترق في الموقد الفخار، كل ذلك كان له حضوره المفاجئ أمام بصرها وسمعها فبكت).

(فصل 20)

علي: تأتي حشرة الصحراء في المساء، وتحط على جانب الشرفة، تلك الومضة الخافتة في زجاج النافذة، ثم تختفي، أرفع عيني وأتابعها حتى تتلاشى عبر السحب فوق أمواج البحر الأزرق البيضاء، أضع قدمي على الوسادة ورأسي من الناحية الأخرى، أتحسس الصحف المجاورة على الكوميدونو، وأميل على جانب، الخيول الرامحة بين التلال[1] لا بد أنه في المقدمة، وينبعث صوت الناي حول الرجل الوحيد الحارس، إنه يقف أمام خيمته ويتلفت، ويحدث عويلا[2]، ويأخذ في الركض حتى يرتطم بجدران الشاطئ، (وعندما أعود لفتح عيني أرى الخيول مرة أخرى)، أسمع أصواتهم وهم يتحدثون في الظلام، متمددين على فرشهم، يدخنون بعد أن أطفأوا الأضواء وفتحوا النوافذ، يضحك أحدهم وتتداخل النبرات مع الكلمات المتوالية للآخر، ثم ها هو الصمت، هزات

---

(1) في أرضية المفرش.

(2) تحت القمر، في الليل الأخير.

أسلاك السرير المعدني. خطوات الشبشب على البلاط في الممشى المؤدي إلى دورة المياه، وسعلة عالية النبرات، موتور العربة يعمل ببطء، ثم تتحرك، ها أنذا أهبط أمام الباب الحديدي، أتطلع للتمساح المحنط، أرى لأول وهلة، الستائر وقد حجبت الضوء من الداخل، أمشي داخل الحديقة، ها هي ذي الشجرة العجوز، حبل الغسيل، والمنديل يرفرف مع حركة الهواء، صفيحة الزبالة فوق البسطة، القطة تقف عل الدرجات الحجرية (تتطلع إليَّ دون أن تعرفني) أرفع الكف النحاسية الباردة، تك. ترك. ترك، أنتظر حركة الأقدام على البلاط. ويمضي الوقت، مرة أخرى، تك. ترك. ترك، إنني أعرف، أبحث عن قطعة من الصفيح، أدسها بين الضلفتين لينفتح الباب، ها هي الردهة، الكنبة الخضراء، بقايا قشر البطاطس على المائدة، تلك الرائحة، خربشة الصراصير في الحمام، لا أحد في الحجرات أيضًا، ها هي ذي بيجامة صيام ملقاة على جانب السرير، فردة من حذاء سالي تقف على جانب المفرش، باروكة سمراء معلقة على الجدار، دولاب أمي مكتظ بالملابس التي تنتظر الرتق، وطاقية أبي عل جانب الكومودينو بجوار المذياع الخشبي،

هذه الرائحة، لا بد أن أبي يجلس في المقهى، وسالي في البوتيك[1] لم يحدث شيء سوى ذلك، إنني أنتظر، إنني أنتظر..

---

(1) إنني أنسى.

أشعر بجوع فأدخل المطبخ وأرفع الغطاء، أعد لنفسي طعامًا وأجلس في الردهة وحيدًا، أمضغ الطعام حتى لا أستطيع، أعيد الصينية النحاسية إلى الداخل وأصنع لي كوبًا من الشاي، ها أنذا أجلس وأدخن، أدخل الحجرة، أفتح المذياع على صوت عبد الوهاب «يا جارة الوادي/طربت/ وعادني» أرشف القهوة وأتكئ للخلف، أتطلع إلى الساعة الخشبية، إنها، هناك، ما تزال، متوقفة، السابعة، تلك الإطارات، الشوارب، المسدس، ذلك الصوت، الطلقة الطالعة خلف القدم، إنها تصطدم بالرصيف، أرفع رأسي، ذلك الضوء الخفيف المنعكس على زجاج النافذة، وترتفع الثرثرة من الحجرة الأخرى تعقبها تلك الحشرجة الآتية من الداخل.

(باب/ ظ)

(مال ظل البيت حتى اندس تحت الجانب المرئي في نهاية النهار، وتسلقت مواسير المياه قطة فزعة يطاردها الذكور، توقفت في منتصف الطريق وأخذت تنوح كامرأة تتألم من رجل ثمل، لكنهم وحتى وهي تسقط راكضة خلف البيت كانوا وراءها بالمرصاد، وقد خلفت المطاردة سحابة قصيرة من الغبار أخذت تتماوج طوال الطريق الموازي لأسفل البيت، ثم انتهت إلى رائحة اضطرت امرأة كانت تحمل فوق رأسها سبتًا مليئًا بالخبز أن تضع

يدها على أنفها وتبصق على الجدار، بينما كان ظل البيت يميل أكثر فأكثر تبعًا لاتساع النهاية المتبقية من النهار، عند الوقت الذي تصدح فيه المغنية باللحن التركي، وهي تعيد وتكرر نفس المقطع والأوركسترا المتداخلة الأصوات، الأوركسترا الكسول، تتبعها حتى ينتظم التكرار في هذا الوقت الرتيب من نهاية النهار، وليس هناك أي بادرة من تلك الشجرة في أن تحرك فرعًا واحدًا جافًّا، أو حتى تهتز بالحبل الممدود بينها وبين الجدار، كما لم يعد هناك ضوء خفيف في الردهة، بل كل ما كان هناك شريط ينبعث من المطبخ، ويمر بالفسحة ويلتقي بجانب الكنبة الخضراء، حيث كانت هناك صحيفة الصباح مفتوحة على صفحة الوفيات).

(فصل 21)

سمراء: ها أنذا ألملم الفساتين من حولي، أنتظر وأغلق الفتارين، سأرفع بيدي كل تلك الفوارغ وألقي بها على الرصيف، قبل أن تطرف عيني بالصدفة في وجه صاحب العربة المنتظر بالصدفة (إنني له اليوم) هكذا يفكر، سأغلق خلفي باب العربة بقوة، وألقي بنفسي على المقعد الجلدي، وأضع على الفور ساقًا على ساق (إنهما جميلتان) وأتناول السيجارة بين أصابعي (ياه) وأنتظر حتى أشعلها ثم أستدير وأسأل: إلى أين الطريق؟ أي شوارع

سنقطعها وعلى أي النواصي سنقف؟ هل سننتظر الإشارة الحمراء أم نعبرها ضاحكين والعسكري يصفر ويصفر، هل سندور خلف عربة الخبز وتصرخ المرأة خلفنا؟ عندما نصل إلى الكورنيش أسأله: كيف ستمضي بي الآن، من هنا أم من الناحية الأخرى؟ هل سيقدر لي أن أرى سالي للمرة الأخيرة وهي عائدة؟ هل سيلمحني وضاح[1] في ميدان التحرير من العربة الجيب؟ ها أنذا أطل عبر الأقمشة الملونة مرة أخرى، وددت لو كان ممكنًا الهمس في الخزينة، لكن، لكل ظاهرة جانبان كما قال فيلسوف العائلة، ساعتها، وكنت أجلس على جانب الكنبة أشد أغطية الوسائد مع أمي، كان واقفا في وسط الردهة، وكان ينظر للأمام، ثم قالها واستدار، إننى أرى أبي في بيجامته وطاقيته ونشاشته يشرب الشيشة في الشرفة قبل العشاء، إننى أراه ينتهي ويميل برقبته على جانب المقعد، يرفع رأسه ويفتح عينيه ويتلفت، إنني أقف خلف الزجاج ما بيني وبين العالم تلك الحزمة من الألوان، إنني لا أرى أمي ولا صيام (وأنت يا علي لقد نسيناك) إنني أخطو، إنني أنتظر، إنني أخشى، إنني أمشي في العشاء بالمشاعر المشوشة في شمالي، إنني أرفع يدي. أصابعي، تلك الأخشاب والأحجار، تلك القطط والأصوات، نعم، تلك الأصوات، كيف سأكون هناك عند المدى الذي لا أعرف ما إذا كنت سأمشي على ممشاه؟ رأسي إلى الخلف مائلة على رقبتي

(1) وأنا ألوح له.

وعيناي مغلقتان ودخان كثيف يهب على وجهي حتى لا أقدر ولا أستطيع، إنني أرقب الموقف، فهل ستنتهى الحكاية؟ إلى أين إذن والطريق والإشارة وذلك الكورنيش والميدان، هل سأرى؟ إنني أرى، لكن. تلك الرعشة، لم يعد المنظر واضحًا، لا بد أنني أتألم، هذه يدي، وتلك الأخرى، يا لها من ألوان.

(باب / ع)

(اشتعل الجانب الشرقى بالأضواء عندما توقفت بجانبه زفة العروس وغرق في الأصوات، كان أحدهم يعلن بياض الليلة الناصع وبياض العروس، والراقصة تهز عجيزتها وصدرها العاري وتتطوح أمام العروسين المتشابكي الأيدي، بقية المغنيات يرددن أغنية الليلة الأولى، ويضربن الدفوف وقد رفعت الأخوات شموعًا محلاة بالورود الملونة، أشعلت الجانب الشرقي بالأضواء عندما توقف الركب هناك، ثم مرت بالزاوية وتوقفت أمام المدخل، حيث بدأ الصبية المرتدون حللهم الجديدة يمطرون الباب الحديدي المائل على جانبه بوابل من المفرقعات واللعب النارية.

ولم يكن قد بدا أي رد فعل من الداخل طوال ذلك الوقت، لم يكن هناك ضوء في الردهة، أو الشرفة أو حتى على بوابة المدخل.

وكل ما حدث - بعد أن تزايدت أصوات اللعب النارية على الباب وامتدت إلى الجدار وسقط بعضها على الشرفة المغلقة أن رأى الركب جانب وجه امرأة بدا عليها الكبر، والإرهاق، والتعب، يطل من ركن الستارة المسدلة ويبتسم.

سار الركب الخفيف تحت أضواء الشموع، أخذت الأصوات تبتعد، كان وجهها هناك ما يزال، حتى ظهر صوت المغنية يكرر المقطع التركي من جديد: أمان، أمان، أمان).

(فصل 22)

الأم: رأيتهم وهم يتطلعون إلى هناك، رأيتهم وهم يرفعون أيديهم ثم يخفضونها في هدوء، هناك، عبر الساحة الخالية إلا من بقايا الأشجار، هناك في الردهة الصامتة تحت الإطارات، هناك، في الغرف المتجاورة وفي الشرفات، هناك، تحت النوافذ، هناك في الطرق، هناك على الشواطئ، هناك فوق المرتفع كانت "سالي" تهز رقبتها، هناك على الشواطئ، هناك على الرصيف كان "وضاح" يمشي مصغيًا، هناك في الميدان كان "علي" ينتظر أن يعبر بين المارة، وهناك بين البراميل رأيتك وأنت تبتسم تلك الابتسامة، سمعتك تدق بقدمك، تدق وتدق دون أن تتوقف، رأيت "صيام" -أيضًا - يركض عبر النجيل في محاذاة الخطوط البيضاء،

وعندما عدت إلى الردهة من الرحلة، أعددت لهم ملابس النوم على أسرتهم، إنهم قادمون واحدًا وراء الآخر بعد انتهاء النهار، بعد أن انتهى وأسدلت الستائر، كان عليَّ أن أملأ المصباح بالكيروسين وأضعه تحت الحامل (خلف الباب) كان عليَّ أن أعلق المناشف في الحمام وأرفع الآنية من الممشى، وأحاول الوصول إلى الكنبة، إنني أحاول، أشد يدي، إنها قدمي: تلك الأصوات.

(باب / غ)

(طلع الضوء الخفيف متسلقًا النوافذ حق استلقى على السطح، ومدد قدميه على الواجهة، وأرخى طرف جلبابه الواسع على الإفريز المحيط بالبيت من كل جانب، ثم مال برقبته، وشوح بيديه، وأخذ يتحرك في بطء بادئًا رقصة صامتة وهو يخفي طرفًا ويظهر الآخر ثم مال واستلقى، عندئذ أضيئت أنوار الردهة، واتضحت الستارة وانعكس ظلها على الباب الآخر، بينما تلاشت الأصوات حتى سمعت الأم صوت المفتاح يتحرك في الثقب من الخارج، ورأت -أول ما رأت- عصاه وهي تسقط في الداخل).

(فصل 23)

وضاح: عند العودة، يبدأ الجنود في تسليم السلاح ويهزون الأيدي ملوحين، ها هو ذا الحبل الواقف في الشمس يخفي الخيام (إنهم ينتظرون دوي اللحظة القادمة) ينشرون الشباك على المدافع فتحط الطيور المبحوحة الصوت على أطرافها، تتحرك الأعشاب وتنتقل من رقعة إلى رقعة، الثعابين تغير جلدها خلف الحصى، الصحراء تتحرك نحو الأفق، تلك الأخاديد الغائرة وقد أخفت آثار أبي زيد الهلالي، هناك في ذلك الكهف: صرخ رمسيس وحث الجياد الراكضة، على المرتفع، تزأر الأسود من حوله ويركض الجنود، يركضون وعلى رؤوسهم الخوذات اللامعة، (الشمس تعكس وجهها المرتعش على الدروع الذهبية) إنني أسمع الخطوات ورجرجة الجعة في آنية الفخار، هناك حيث الجدران منقوشة بالطيور والثيران والزهور، أنسحب تحت معطفي وأتطلع إلى تلك الخطوط الباهتة: القرمزي المتماوج من الأزرق الخفيف ينسحب في خطوط أفقية على المساحة الداكنة، (فوقها بالأحرى) تتناثر السحب الضعيفة السابحة حتى تهز الأيدي لترفع الصخرة جوار نبع الماء الذي لا يكف عن الخرير، تنتحب الريح داخل أكمام الستر العسكرية المعلقة على الأشجار، ها هو ذا اليوم ينتهي، ويخرج حامل البوق، ويرفع الصوت بنوبة الخروج. أتمدد

على السرير تحت الصورة التي أكلت أطرافها الرمال، إنه هناك يقف بالملابس البيضاء، إنه يقف، كيف يمكنني أن أحكي حكاية متعاقبة مثل هذه من تاريخ لا ينتهي بالعدوان، ها هو ذا يصفر في نايه الأزرق الملفوف بالخرز والترتر (يتمايل الصوت) أنتم يا من هناك.

(باب / ف)

(لقد مضى النهار وتقادم الليل، وانطفأت أضواء الحجرات، واختفت الأصوات، ثم عاد الضوء الخفيف مرة أخرى، وانفتحت النوافذ وعادت الأصوات).

(فصل / 24)

علي: ها هي ذي الطيور ترف بأجنحتها على حافة النافذة، أرى الطريق وقد استرخت على جوانبه أشعة الشمس الباهتة في الصباح، أراهم يخرجون من أغطيتهم، يأخذون في السعال على المراحيض، ينثرون الماء على وجوههم ثم يركضون.

سمراء: أسمع صوت أبي في الحمَّام وهو يسعل قبل أن يجلس في الردهة ويرشف الشاي باللبن بصوت مسموع، أسمع صوت الوابور آتيًا مع رائحة السماج، إنني أقاوم وأقاوم ها –تلك الشمس– تغيب

مرة أخرى.

صيام: إنني أتدحرج على فراشي وأشد الأغطية من حولي، ما زالت الأتربة في أنفي وبين أصابع قدمي، عليَّ أن ألحق بالقافلة.

سالي: بائع الفول ينادي وأصوات الآنية الألمونيوم في الأيدي الممدودة تذكرني بأن عليَّ أن أستيقظ، أدس رأسي في الغطاء محاولة أن يمتد بي الزمن مرة أخرى، أرى الأضواء من ثقوب الملاءة فعيناي مفتوحتان.

الأم: أمد قدمي بصعوبة بحافة السرير النحاسي، أخلع عني الأردية وأخطو ببطء لأفتح النوافذ أجلس لأطفئ مصباح الكيروسين خلف الباب فلا أقدر على الوقوف، إنني أسمع سعاله آتيًا من الداخل.

وضاح: ها هو صوت البروجي يرتفع حيث تدق الطبول وتنتشر عبر الصحراء.

الأب: اليوم يوم راحتي فلن أتحرك، سأمدد جسدي وأسترخي وأغمض عيني حتى تغيب الشمس.

سالي: أضبط يدي مدسوسة تحت فخذي فأسحبها خائفة، أضعها من الناحية الأخرى وأشم رائحة الدم والعرق.

صيام: إنني أركض حاملًا المفاتيح والكراريس، أتطلع في كل اتجاه محاولًا أن أنسى، ثم أدق بقدمي على الأسفلت وأحدق إلى الأمام دون أن أرى، ثم أتوقف.

علي: أنت يا أبي تجلس على المقهى وتتلفت من حولك، تتطلع إلى المارة، المتزاحمين على الأرصفة وتهز نشاشتك بعصبية.

الأم: ها هي قطعة من الملاط. ها هي قطعة أخرى، إنها هي إذن تلك التي أحدثت الصوت في الليل الأخير.

سالي: تأتي الأصوات عبر النوافذ وترتفع الأضواء خارج الردهة، وها نحن نجلس حول المائدة صامتين.

الأب: أرى في عيونكم بقايا الأمس فامضوا اليوم في الراحة على أسرتكم.

وضاح: سقطت الوسادة من تحت رأسي فها أنذا أقف وأتمطى، تصطدم يدي بالسلاح المعلق في الخيمة.

سمراء: إنني أصفّر وأمشي بهدوء عبر الطريق الخالي تحت الأشجار.

علي: إنني أحمل حقيبتي وأضعها، أذكر صوت البواخر في الميناء، وأرى طيور البحر ترفرف من حولي وأنا أطل إلى الماء الأزرق والمدى المترامي.

صيام: أتطلع إلى أشجار التين المنتشرة عبر البراري، وأتابع قرص الشمس وهو ينحدر.

سالي: أركض خلفه على النجيل ثم أضحك وأضحك.

الأم: أمشي إلى السوق مفكرة فيما سيكون عليه الحال هذا الصباح.

سمراء: أدس المشط في شعري وأتوقف، أنظر إلى المرآة وأتابع الأيام والشهور وأحرك وجهي ناحية وناحية، حتى أشعر بالإرهاق وبالتعب.

الأب: إنها تمشي على الرصيف ببطء، وتحدق إلى الأمام بقوة، إنها تقف وتحادث نفسها وتعود من حيث أتت.

علي: إنني أعود إليكم محملًا بالصناديق، راكبًا عربتي التي ناضلت من أجل أن تروها، عائد أنا ومحشو بالقماش والبلاستيك، أقطع الصحراء والطرق، يتحرك قلبي عندما تقع عيناي على اللافتة: «أهلا بكم في القاهرة» أدخل في الزحام حتى أكاد أصطدم براكب العجلة، أتوقف أمام بقايا البيت، نعم، كان هنا، ولم يعد هنا أحد، لقد مضوا واحدًا وراء الآخر، ها هم الجيران يتجمعون من حولي، يتحدثون بعصبية وعلى شفاهم ابتسامة، يمكنك أن تتبعهم على الطريق، ها هم الأولاد يعبثون بين الحجارة مع القطط والكلاب، يتبولون ويلقون على أضلعه الزبالة، أجلس أمام عجلة القيادة وهم يتحلقون حول العربة، ها هو ذا الطريق عدة طرق لا أعرف ما إذا كانت ستنتهي، ألقي نظرتي الأخيرة وأحرك المفتاح، إنهم يركضون خلفي، الأولاد يلقون بالحجارة ورائي، نعم تلك الأصوات.

وضاح: إنني أخرج من الخيمة وأتطلع إلى الجبل، أحمل مدفعي ويداي ترتعشان، ها هي ذي قد جاءت لحظة النهاية، (إنني أمر

باللحن الأخير) إنني أقف في اتجاه الشمس، إنني أتسند بجذعي على الصخرة، إنني أنظر وأتطلع، أحرك الأمان للخلف وأطلق النار في كل اتجاه حتى يلتهب شعر الشمس ويلتوي.

صيام: ها هم يتجمعون في الفناء، ينادون عل بعضهم البعض فتكبر الحلقة، ها أنذا أجدني راكضًا إليهم، أتجه ناحيتهم وأندس بينهم، إنهم يتحركون للأمام، يرفعون الأيدي ملوحين بقبضاتهم، يرفعونني على الأكتاف فأرفع صوتي.. تتردد الأصوات.

سمراء: ها أنذا أجري إلى الشاطئ، أقف تحت ظل شجرة وحيدة. أبتسم فتقف العربة الفارهة. ينفتح الباب فألقي بجسدي على المقعد الجلدي: أسمع صوت الموتور يتردد ويتردد.

سالي: أطلع إلى الجبل محلولة الشعر، إنها الأضواء التي تقودني إلى أعلى، ها هو وهم هناك، إنني أرتمي من هناك إلى المنحدر وأنا أتدحرج.

الأم: هل هم هناك الآن مرة أخرى؟

الأب: مدي يدك ناحيتي، هات أصابعك في أصابعي، هيا بنا نحجل ونتمايل في الحديقة.

السيدة زينب – فبراير 1977 – ديسمبر 1979

فهرس

كلمة لا بد منها	7
(باب/ أ)	11
(فصل / 1)	12
(باب / ب / 1)	17
(فصل / 1 / أ)	18
(فصل / 2 / ب)	20
(فصل / 2 / ج)	23
(فصل / 2 / د)	25
(فصل ب / 2)	28
(فصل 3 / أ)	30
(فصل / 3 / ب)	32
(فصل / 3 / ج)	34
(باب / ت)	36
(فصل / 4)	39
(باب/ ث)	47
(فصل / 5)	49
(باب / ج)	55
(فصل 6)	56
(باب/ ح)	60
(فصل 7)	62

(باب/ خ)	66
(فصل 8)	67
(باب/ د)	74
(فصل / 9)	76
(باب/ ذ)	81
(فصل 10)	82
(باب / ر / 1)	87
(فصل / 11 / أ)	89
(فصل / 11 ب)	93
(فصل 11 / ج)	94
(باب / ر / 2)	99
(فصل / 12 / أ)	101
(فصل 12 / ب)	106
(فصل 12 / ج)	108
(فصل / 12 / د)	112
(باب / ز / 1)	115
(فصل / 13)	116
(باب / ز / 2)	121
(فصل 14)	123
(باب / س / 1)	125
(فصل / 15 / أ)	126
(فصل / 15 / ب)	128
(فصل 15 / ج)	130

(فصل 15 / د)	133
(باب / س / 2)	138
(فصل / 16 / أ)	139
(فصل / 16 / ب)	142
(فصل / 16 / ج)	144
(باب / ش)	145
(فصل 17)	147
(باب / ص)	150
(فصل / 18 أ)	151
(باب/ ض)	155
(فصل 19)	156
(فصل ط)	158
(فصل 20)	159
(باب/ ظ)	161
(فصل 21)	162
(باب / ع)	164
(فصل 22)	165
(باب / غ)	166
(فصل 23)	167
(باب / ف)	168
(فصل / 24)	168